

Princeton University Library



32101 060543574

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--





کتاب الهلال

نفرستی

رنبہ بحمال والنہاج

تألیف
صوفی عبداللہ

سلسلہ شہریہ
تصدر عن دار الهلال

العدد
۱۳

ج
۸

Ex Libris

J. Heyworth-Dunne

D. Lit. (London)

« لال

ي زيدان

ي

Nº 9935

العدد ١٣ - مايو ١٩٥٢ - شعبان ١٣٧١

No. 13 — May 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوستة مصر العمومية - مصر

التليفون : ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

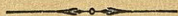
الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددًا) - مصر والسودان
٨٥ قرشا صاغا - سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية
او لبنانية - الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش
صاغ - في الامريكتين ٥ دولارات - في سائر
انحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

'Abd ALLāh, Sūfī

نفرتیتى

ریتہ البجمال والتاج



تأليف

صوفي عبد الله



دار الهلال بمصر

(Arab)

PJ7805

.S9N33

(RECAP)

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

PAIR



32101 01417517



الملكة نفرتيتي

مقدمة

سلاما أيها القارئ !

من الناس من حياته نفحة من نسيم ، ومنهم من حياته لفحة من نيران الجحيم . ومنهم من يمر بالدنيا كالاعصار لا يبقى ولا يذر ، ومنهم من يشيد فيها ويعمر ، ومن يجيء إليها ويمضي عنها بلا حس ولا خبر ، ومن يشرق فيها اشراقة البدر ، ومن يفعل فيها فعل الواابل الغمر ، فاذا مضى بقي من بعده ما أنبت من خير وما خلف من بر ، ومنهم من لا ينفع ولا يضر ، ولكنه كالزهر يزهر بالحسن وينفح بالعطر

فأى من هؤلاء نفرتيتى ؟ وأى من هؤلاء هذا الكتاب الذى يتسم باسمها الذائع فى الآفاق ؟ .. انها ملكة مصر فى عصرها الذهبى التليد ، وانها أسطورة الجمال المصرى العريق ، وانها صاحبة أجمل تمثال وأشهر تمثال من ذلك الزمان السحيق ... فهى نور مشرق اذا نظرنا الى الملك والتاج . وهى زهرة مونقة ذات عبير اذا نظرنا الى الجمال الرائع . وهى نفحة من نسيم ندى اذا نظرنا الى الفن الرفيع

فأى كتاب هذا ؟ وما دعواه ؟ .. أكتاب تاريخ هو ، أم كتاب فى الفن ومذاهبه ، وعلم الجمال ومناهجه ؟ وهل هو ترجمة حياة ، أم هو صورة فترة من حياة شعب ؟ وهل هو متحف

طرائف ، أم هو نافذة تطل على خضم اجتماعى زاخر
بالتيارات والمؤثرات والاحداث ؟ ..

انه بعض من كل ذلك ، وشيء فوق كل ذلك ، اذا صدقت
دعواه ونفذ الى غاية مرماه ...

فهو صورة حياة امرأة ، ولكنها امرأة لا تستأثر أنوثتها
بجوهر حياتها ومبلغ أثرها . فهي ملكة ذات جلال وجمال .
وليس هذا أكبر شأنها وانما أكبر شأنها أنها امرأة « روح
عظيم » من أنبل وأشرف من نهضوا بالرسالات الانسانية ،
وحملوا « الأمانة » بتكليف من سرائرهم . وانها زوج ملك
وزوج قديس ولد للسلطان ، فنذر نفسه للفتوح فى عالم
الروح ، واستبدل بالسيف غصن الزيتون ، وجعل من
الحب ناموس حياته وحياة الناس ، ضاربا بحبه زوجته
نفرتيتى المثل لكل حياة كاملة للنفس التى تطلب الأمن
والسلام



وان الأجيال لتنتوى فى أثر الأجيال ، قبل أن يظهر فى
هذه الارض المنكودة - أرض البشر - روح عظيم بعد أن
يفارقها روح عظيم .. فما أكثر الناس أيها القارىء ،
ولكن ما أقل العظماء حقا . وقليل من العظماء من عظمتهم
مستمدة من نبع الروح القدسى والقلب الطاهر النقى

ولقد درجت الحضارة فى مصر طفلة ، ومشيت يافعة ،
وخطرت شابة ، فقامت على ضفاف النيل الهياكل
والمحاريب ، وتوطد ركن الدولة ، وامتد سلطانها فى المشرق
والمغرب والشمال والجنوب .. ولم يكن ذلك كله مددا من
عالم الروح ، فليس فى تاريخ مصر كله - قديمه وحديثه - «روح
عظيم » يقرن الى ملكها القديس « اخناتون » !

ولم يقدر لامرأة في تاريخ مصر كله — قديمه وحديثه — أن تعيش في جو روحاني كالذي عاشت فيه زوجته وأخته نفرتيتي . ولم يقدر للملكة أن تعاصر صراعا أهول ولا أروع من الصراع الذي شهدته نفرتيتي رأى العين ، في ميدان القصر الملكي ، وفي بلاط الملك ، وفي قلبه الكبير الذي هذه الحزن وتغلغلت في أطوائه المرارة والحسرات

ومضى « الروح العظيم » . ومضت زوجته نفرتيتي . . . ولكن العالم بقى مشغولا بها في هذا الزمان ، حيث شغل عن بعلمها العاثر الجد . !

ولكنها سطوة الجمال ، وإن كانت في تمثال

ومن هذه السطوة التي لا تقاوم ، يستمد اسم « نفرتيتي » سنده في تتويج صفحات هذا الكتاب الذي يتناول الملكة الفاتنة من حيث هي قطب الرحي في معركة الروح والحق والعدل والخير ، تلك المعركة التي يعز نظيرها في التاريخ والتي رفع لواءها زوجها : « اخناتون »

وفي تواضع الزاهدين ، وتضحية الشهداء والصديقين ، يتوارى الملك الناسك ، ليتترك الصدارة للؤلؤة قلبه ، وريحانة بيته ، « نفرتيتي » . . !

ولئن اتخذ هذا الكتاب من جناح الخيال معراجا ، فليس الى غير حقائق التاريخ عروجه ، فكل ما فيه مما أثبتته العلم ، أو مما يثبتته العقل وإن لم يرد عنه في الخبر المتواتر ذكر . .

فهو صورة حياة امرأة ، وهو صورة حياة ملك قديس وروح عظيم ، وصورة حياة شعب ناهض قديم

صوفي عبد الله

مصر الجديدة

بين عالمين

في حبس الزمن

قلت لصاحبى ونحن فى طريقنا فى ذلك الصباح الصائف :

— ما أشد ولع الانسان بالسجون والمحابس ، وان أبدى نفوره منها !

فسألتنى فى هدوء لا يخلو من تهكم خفى : « وكيف كان ذلك ؟ »

فقلت : « زعموا أن الانسان ولد حرا ، وفطر على الحرية . ونراه اذا عاقب أهدر حرية من يعاقبه — وذلك مفهوم . ولكنه أيضا لا يستغنى عن استخدام الحبس والتقييد فى كل غرض من أغراضه ، لفائدة عقله وقلبه »

فابتسم صاحبى وقال : « وأرانى مرة أخرى أسألك :

وكيف كان ذلك ؟ »

— زعموا أن الحب هو أوفى نعم الله على الانسان ، وقد يفوق نعمة الحرية فى القيمة ويرجحها أيما رجحان . وهذا الحب أقوى القيود التى تربط الانسان .. أفليس هذا جمعا بين النعمة والنقمة ، وبين الحبس والمتاع ؟

— هو والله كذلك . !

— وكلمة «العقل» نفسها ، ليست مشتقة من «العقال»، وهو القيد يربط به الشئ فيقيد ويحبس عن الحركة ؟

— بلى ! فالتزمام الحدود ، وحبس كل شئ فى حد لا يعدوه هو شرط الحياة المتزنة والتفكير السليم على السواء ...

— وهذا ما عنيته حين عجبت لولع الانسان بالسجون

والمحبس وان أبدى نفوره منها ... ورحم الله « رهين المحبسين » أبا العلاء ...

— ومن أحق بالغفران من صاحب «رسالة الغفران» ؟! ..
ولكن بم استحق عندك الترحم في هذا الأوان ؟
— بما أقر به على نفسه حين قال :
واعجب منى كيف أخطيء دائما

على أننى من أعرف الناس بالناس !
فكأنه والله كان يشير الى زعمه أن :
أمس الذى مر على قربه يعجز أهل الارض عن رده
— أترينهم لا يعجزون عن رد « أمس الذى مر على
قربه » ؟

— عفوك .. ها نحن قد بلغنا غايتنا فادخل تر ...

— وماذا أرى ؟ .. انه « المتحف المصرى » ...

— وهل تريد محبسا للزمن أكبر من هذا المحبس ، يرد
فيه « أهل الارض » أمس البعيد ، فاذا به حاضر مشهود ؟ ..
أليس هذا ما غاب عن أبى العلاء ؟

فابتسم صاحبى وهو يتقدم من الباب الكبير
ودخلنا مع الداخلين

جناح الذهب

وكانت وجهتنا هذه المرة ذلك القسم من الطابق العلوى ،
الذى جعل للأسرة الثامنة عشرة ... أزهى عصور الفراعنة
من الوجهة الأثرية ، ومن حيث الترف والنعيم ، واستقرار
الحضارة وتوطد أركان الدولة على العزة ، وتمتعها بشمار
النصر ونعم السلام ..

وان خطوة واحدة داخل ذلك الجناح تكفى لمعرفة السر
فى تسميته : « العصر الذهبى » فى تاريخ الفراعنة .. فهو

حقا عصر الذهب : كل شيء فيه فاخر ثمين ، وحلى الذهب وأقنعة المومياء من النضار الخالص ، وما من صغيرة أو كبيرة الا وهى تنم عن ثراء عريض وغنى لا حصر له ...

والناس قد درجوا - العامة منهم والخاصة - على الافتتان بالثراء ، والانبهار برنين الذهب ولمعانه الأخاذ .. فحيثما كثر الذهب وتدفق فى مجارى الترف والبذخ ، كان ذلك العصر فى وهمهم أسنى العصور ، وأولاها بالتهليل والتكبير ولكن هل عصر الذهب هو العصر الذهبى حقاً ؟ هل كثرة الذهب فيه اطلاقاً دليل قاطع على الرخاء العام والنعمة السابغة الشاملة ؟

السنا نرى اليوم الذهب وقد كثر فى الأسواق ، فلم يسر للناس الأرزاق ، بل ضاق الأمر حتى كاد لا يطاق ؟

فمن التزام الحق والمنطق الدقيق ، ألا ننزلق مع « ذلاقة اللسان » فنقول انه « العصر الذهبى » لأنه « عصر الذهب » ... ويحسن بنا ألا ننسى تجربة الانسان من أقدم الأزمان لهذا الأصفر الرنان ، فقد كان على الدوام خادماً نافعاً ، وسيداً ملعوناً !

وربة التاج ؟

وناهيك بكنوز توت عنخ آمون ، التى كان أكثرها من قبل لأخناتون .. فنزع اسمه من فوقها - أو طمس - لينقش اسم الملك الشاب ، امعانا فى النكاية ومحو آثار الانقلاب ..

وجعلت أتأمل تلك الصور الصغيرة التى تمثل فرعون مصر وزوجه وبناتهما الصغار فى كافة المناسبات .. صور ناطقة ، تكاد روعة ألوانها وخطوطها أن تنبض بالحياة ..

اى وربى ! لولا حواجز الزجاج لتلمست ييدى تلك

الصور ، فان فى العقل لشكا أن تكون أكثر من رسوم على
الأحجار ...

وأخذتنى تلك الصور العائلية ، وما فيها من نفح الحب
والرحمة والحنان .. فأذكرتنى سائق عربة الجر الذى نراه
اليوم يضع ولده الذى لا يجاوز طوله الشبر على ركبتيه
ويأبى ألا أن يمسك فتاه عنان الحصان !

ولكن طفى على هذا الشعور شعور بالغبطة لتلك المرأة ،
زوج فرعون .. فهى أول ملكة تلزم زوجها الفرعون فى
جميع الطقوس والمشاهد والرسوم . وليس لذلك أصل
عميق فى الطبيعة الشعبية عند المصريين ، الى يومنا هذا ..
ودون أن أدري ألفت نفسى أهتف فى أعجاب وحسد :

— ايه « نفرتيتى ! » لقد أوتيت ما لم يتهيا لأحد من
قبلك ولا من بعدك !
ثم سألت مرافقنا العالم الأثرى ، حين لم أجد مومياءها
بين تلك المخلفات العظام :

— ولكن أين ربة التاج ؟ أين شمس ذلك السلطان ؟
فقال الرجل : « من يدري ؟ .. لم يعثر لجثتها على أثر ،
كما لم يعثر لزوجها على قبر »
وتلفت ألقى على كل تلك التحف نظرة أخرى ، وقد
انقلبت غبطينى لصاحبيتها رثاء واشفاقا ..



وكأنما أدرك الرجل بعض ما فى نفسى ، فاستطرد يقول :
— لقد لازمنا سوء الحظ حقا فى شأن نفرتيتى ، فإذا كان
فقدان مقبرتها أمرا يعلل بفعل الزمن ، فبماذا نعلل ضياع
تمثالها من أيدينا ، ليزدان به متحف برلين ؟ !

— لا أدري بماذا نعلله ، ولكن لا بد له من علة على كل حال ..

— طبعاً .. ولكنها علة لا تسر ، ويكتنفها الخزي من أكثر من جانب واحد . فقد كشف ذلك التمثال البديع عالم أثيرى المانى . والرجل يعلم أن قانون الآثار المصرى يحتم احتفاظ متحف القاهرة بالقطع التى لا نظير لها ، وما له نظير يقسم مناصفة . وهو يعلم أيضاً أن التحفة التى عثر عليها لا نظير لها فى كمال الفن ، ودقة الصناعة ، وأهمية الدلالة التاريخية . فهى أكمل وأجمل تمثال من ذلك العصر ، عصر الذهب والترف . فسولت له نفسه أن يغطى التمثال الجميل الرائع التلوين بمادة عازلة من القصدير — كذلك الذى تغطى به قطع الشكولاتة — ثم يجعل حوله الحص من كل جانب ، بحيث يبدو شيئاً منفراً لا معنى له ولا لون ولا طعم ... فجازت الحيلة ، وخرجت التحفة الفريدة من الديار ، فتخطت البحار الى برلين وهناك جلوها للناظرين من غشاوتها الموهبة ، وابتنوا لها — اعتزازاً بها — بهواً خاصاً على الطراز الفرعونى

وهكذا حظيت برلين بذلك الذخر الثمين ، وخلت مقاصير متحفنا من ربة ذلك الملك الباذخ جسماً وتمثالاً ..

الروح الخائر ..

وانتصف النهار .. وآن لى أن أرحل عن المتحف ، وأن أبرح «جناح الذهب» فيه ، ولا زالت مأساة نفرتيتى تداعب وجدانى وتأخذ على أسباب الهدوء . فكل هذا النعيم كان ملك يديها ، وقلب زوجها كذلك كان حانياً عليها صادق الحب لها ، وتلك نعمة أندر من الملك والجاه العريض ، فطالما عز القلب الخالص الود على ذوى التيجان والعروش . أما هى فكان لها هذا وذاك جميعاً . فكيف غربت تلكم الشمس ،

وكيف أنتهت الى المنفى والتشريد جسما ومثالا ؟

وأغمضت عيني للنوم حين بلغت مقامى ممثلة النفس
بما شهدت ، وبما استثارته المشاهدة فى نفسى من ذلك
القدر الذى رصد لربة التاجين ، صاحبة الجمال والجلال
« نفرتيتى » ٠٠ حتى لقد تمنيت اننى رأيتها رأى العين ،
وصحبتها صحبة ألفة وارتفاع كلفة ، كى أعرف الحياة كما
كانت فى « عصر الذهب » ، وأنفذ من وراء هالة الزمان
السحرية الى قلب الانسان النابض فى كل زمان بالآمال
والافراح والاشجان ٠٠٠

وشاقنى أكثر من هذا ، وأنا أتهيأ للنعاس بعد وجبة
عجلى ، أن أعرف حال الائمة فى ذلك الزمن الفريد ، الذى
رفع لواء الثورة فيه رب الحكم وولى الدنيا والدين ، فخذله
من انتصر لهم ، وعفت آثاره ، وعفت آثار زوجه نفرتيتى
معه ، وصار الى ذمة التاريخ ذلك البصيص الفذ الذى أومض
ثم خبا وشيكا وقد اجتمعت عليه أهوية الاهواء من كل حذب
وصوب ٠٠٠

وقلت فى نفسى ما قال أبو العلاء :

كم وعظ الواعظون منا	وجاءت الأرض انبياء
وذهبوا ، والبلاء باق	ولم يزل داؤها العياء
حكم جرى للمليك فينا	ونحن فى الاصل أغبياء !

ثم غفوت ٠٠ ولا أدرى كم من الزمن غفوت ، فاذا الباب
يفتح فى غير صوت ، ثم يدخل على شبح ملتحف بالصمت ،
تحوطه المهابة وهيبة السمى ، لم أتبيئه بادئ الأمر فى
عتمة المخدع ، حتى اقترب منى فصار على قيد خطوات أربع
فاذا رأس ولاساق ، تمشى فى الهواء أو هى تسبح فيه ويُيدا
وكدت أصبح مستنجدة ، فاذا الرأس يكتمل له عنق

طويل ، وصدر نحيل ، وبطن متهدل ، ثم ساقان فيهما
نعلان ، وعلى تلك المرأة غلالة من نسيج رقيق تشى بأكثر
مما تخفى . . . وفوق رأسها ذلك التاج المستطيل ، وفى
نظرتها ذلك السحر الجميل . . .

وقبل أن أفتح فمى لأهتف مأخوذة بما أرى :

— هذه نفرتيتى وايم الحق ! . .

كانت الملكة قد سبقتنى الى الكلام ، مرددة شطر البيت
الآخر مما تمثلت به : « ونحن فى الأصل أغبياء » . . .

فحملت فيها لا أدرى ما أقول ، فاستأنفت كلامها فى
تأنيب كالتدليل :

— أجل أغبياء ! فقد كنا أغبياء حين حسبنا الارواح
لا تعيش الا فى الاجسام ، وفى أجسامها التى سكنتها فى
حال الدنيا على وجه الالزام . . . وهأنذى أبعث من جديد
لأظهرك على فساد ذلك الرأى . . .

وأحسبني كنت أتفحصها مبهورة بشكل ظاهر، فابتسمت
وسألتنى : « هل أعجبك شكلى ؟ »

وسكنت لحظة ، واستطردت : « لا أظن ! بل أكبر ظنى
انك شعرت بخيبة كبرى . . فان الذين فتنهم تمثال رأسى
وعنقى يخيب أملهم اذا رأوا ما فى سائر جسمى من اضطراب
فى الهندسة وتنافر فى التكوين . . »

— عفوك مولاتى ، ولكن . . .

— لا لكن هناك ! تلك هى الحقيقة ، ولا أكتمك اننى
ما كنت أجهر بها الآن الا وقد فارقنا عالم القشور والغرور
وتخلصنا من ذلك الجسد بما فيه من قبيح ومليح . . أما
ونحن فى الدنيا ، فقد سرنى أن يصنع الصانع تمثالى خاليا
من ذلك العيب الظاهر . . أم تراك تصدقين طرفة عين أن
يكون جسمى جميلا ممشوقا ثم أتردد فى تخليده للناظرين؟

اننى ملكة النيل ، وسيدة الخافقين ، ولكننى امرأة أولا . . .
ولا تزهد امرأة الا فيما لا زهو فيه . . .

وابتسمت لهذه الشهادة الخالصة ، التى يعزى الفضل
فيها الى زوال الغرض وانتفاء الحسارة ، بعد ختام الحساب
وانقضاء اللبانة . . . وبدا على شئ من الدهش والتساؤل ،
فسألتنى أن أفصح عما أضمر ، فقلت وأنا أغالب الحرج :
« انه لشرف عظيم يا مولاتى . . . »

فقاطعتنى ، وقد فهمت بقية المقال :

— ولكنك تعجبين كيف علمت أنك تشتهين لقائى ؟ . . .
— هو ذاك يا مولاتى . . .

— لقد اشتقت لقائى ، وكان شوقك صادقا ، فلمس
روحي . . . فجئت اليك خفيفة على جناح من الشوق المستطار
— ولكن يا مولاتى ، ذلك يبين لى كيف جئت ، وليس على
الارواح عزيز ، بيد أنه لا يظهر لى كيف علمت ما فى نفسى
من شوق شديد . . .

— وهل ذلك أصعب من المشول من عالم الى عالم ،
والشخص من دنيا الارواح الى دنيا الاشباح ؟ أما سمعت
يا بنية بالمذيع ؟ بل انى أراه الى جوار فراشك . . .
— أجل . هذا مذياعى . . . ولكن . . .

— ولكن ماذا ؟ . . . انك تستخدمينه ولا تعجبين من انتقال
الصوت آلاف الاميال ، ومن انفعال الحديد الأصم بموجات
الاثير . . . فكيف تعجبين بعد هذا لما هو أقرب الى البداهة
السديدة ، من انفعال روح بروح وان بعد المدى فى زمان
أو مكان ؟ . . .

— عفوك يا جدتاه ! . . . انما نحن أطفال الحياة ، ومهما
بلغت حدة عقولنا ، لم نتخلص من رق العادة . فنحن
لا نستغرب المألوف وان بدا فى ضوء العقل عجيبا ، ونستغرب

ما لا غرابة فيه اذا لم يكن مألوفاً . . .
- لا عليك ! . . . فقد كنا مثلكم فى ذلك الرق . ولم نكن
خيراً منكم ، أبناء هذا الزمان

وتنهدت وسكت ، كأنى أكنتم حسرة شديدة ، فقالت :
- فيم هذا ؟ ألم تريدى لقائى ، وهأنذى ؟ . . .
- مولاتى ! لقد صنعت لى ما لا طاقة لى بشكره . ولكنى
اشتغيت أن أعيش فى زمنك ، لا أن تعيش أنت فى زمنى . . .
- وبعد ؟ ما الذى يحزنك اذن ؟

- اننى لا أنال ما أشتهى ، وان كنت شاكرة لما نلت . . .
- ومن قال لك يا بنية أنك لا تنالين ما تشتهين ؟ . . .

- وكيف لى به ؟ أنى لى أن أعيش فى زمنك يا مولاتى ،
ودون ذلك سجن منيع من الزمن ، ان قرونا طويلاً تفصلنا
. . . فأين أين الفرار من ذلك الاسار ، ليتسنى لى أن أعيش
فى عصرى وأجلو الغامض من سرى ؟ . .

هو على هين

فابتسمت الملكة ، وبدا جلال الملك شيئاً ضئيلاً الى جانب
ما يضيفه العلم النافذ الى ما وراء الاستار من هيبة طاغية ،
ثم قالت :

- لا عليك ! هو على هين . . .

- أعلم هذا ! فأين آماذ الزمان وأبعاد المكان من الأرواح
التي تخطت ذلك العالم الفانى ؟ . . ولكنه على أنا الفانية
ليس هيناً ، بل هو على التحقيق ليس ممكناً
فابتسمت ابتسامة عريضة ، كما يضحك الشيخ من طفل
غريب ، وقالت :

- على التحقيق ؟ وما تدريين أنت ، بل ما تدرون

أجمعين من أمور الوجود على التحقيق ؟ دعى عنك هذه
الحزبيلات .. وتعالى ألمس جبينك بيدي هذه ...

ووضعت يدها فوق جبينى ، ثم قالت لى : انظرى فى
المرآة ، فنظرت ، فلم أر صورتي ، وان رأيت صورة كل
ما فى الحجرة ، عداها وعداى .. فقالت وقد أضحكته
دهشتى :

- أنت الآن ترين وتسمعين ، ولا يراك أحد ولا يسمعك
.. وعلى جناح الأثير ستطيرين معى الى عصر أبى ، وعصرى ،
ثم تعودين قبل انبلاج الصبح فى دنيا العالمين ...
وانطلقنا ...

والد وما ولد

نسب مغموز

وفي أقل من لمح البرق الخاطف ، كنت واياها فى مكان
منعزل على شاطئ النيل ٠٠ وليس من حولنا ديار ولا نافخ
نار ٠ ولكنى استشعرت أنسا ، ولم تخالجنى الرهبة ولم
تخطر لى ببال ٠ فنظرت حولى أتملى من جمال المكان ، وقد
خيل الى أنى رأيته من قبل ٠٠

ووضعت يدها على يدى ، ثم قالت لى :

— نحن على أبواب طيبة ، وقبل أن نهبطها ينبغى أن أقدم
لك نفسى ٠٠

— عفوا ملكة النيل ! ٠٠ ومن ذا يجهل نفرتيتى ٠٠؟

— بل قولى : من ذا يعرفها ؟ فليس أقرب وألصق بالمرء
من نفسه ، وبرغم ذلك فانه يسلخ العمر الطويل ثم تبدر
منه البادرة فاذا هو يستغربها وكأنه لم يكن يعرف نفسه
على هذا الغرار من قبل ٠٠٠ فكيف وقد غير الزمن ، وصارت
الدولة غير الدولة ، والاضاع غير الاوضاع ٠٠؟

— ذلك حق ، ولست أدرى كيف نسيته

— أنا بنت الاكرمين : أبى أمنتب الثالث ، وأمى الملكة
تى ٠٠ وكلاهما ذو مكان رفيع فى تاريخ هذا الوادى العظيم
— وهذا شأن لا يجهله أحد يا بنت أمنتب ، أو يا بنت
امينوفيس ، على رواية فريق من أصحاب التاريخ القديم ٠٠
— ولكن هذا ليس هو الحق كل الحق ٠٠٠ فمن أمنتب
الثالث ؟

— هو ابن تحتمس الرابع حفيد تحتمس الثالث بطل

مجدو ، وفاتح فلسطين ، وقاهر الشرق ، وصاحب الحرب
الخاطفة ، صاعقة الحروب الذى لا يشق له غبار . . .

فطامنت نفرتيتى من رأسها الدقيق فى اكبار ، وقالت :
- كذلك كان تحتمس الرابع ، وأكرم به من جد مجيد ،
لو أنه كان جدى حقا وصدقا ! . . .
- وى !

- وفيهم العجب ؟! ان أبى ينسب الى تحتمس فى رواية
تسجلها الآثار والجدران ، برسوم ناطقة بأجلى بيان ، ولكنها
اسطورة ابتدعها الكهان ، ليوطئوا العرش لأبى من بعد
وفاة تحتمس الرابع فى ميعة الصبا ، غير مجاوز ستا
وعشرين سنة !

ابن الاله !

فارتسم على وجهى مصداق ما فى نفسى من العجب ،
وقلت :

- ان هذا والله لحديث خطير ، اذا جاز لى أن أستعمل لغة
الصحافة فى هذا الزمان ! فكيف يقحم على العرش - وأى
عرش ؟! عرش الفراعنة سلالة الالهة ، أوطد العروش فى
العالم القديم - رجل ليس من نسل الملك ، وينسب الى ولد
الملك ، والعهد بالقصر الملكى فى ذلك الزمان ان حركاته
تحصى وترصد ، وان أبناء فرعون ليسوا هملا يجهلون ،
حتى يبرز الى الوجود دعى ليس منهم فيصدقه الناس ؟ . . .
فابتسمت نفرتيتى ابتسامة الاشفاق ، ثم قالت :

- أجل ، فرعون صاحب أوطد العروش ، ونسل الالهة
الميامين . ولأنه نسل الالهة الميامين ، وخليفتهم على الوادى
المبارك ، جاز لوالدى أن يرتقى ذلك المرتقى العجيب
فقلت وأنا بين الانكار والتصديق :

— انها الجهالة العمياء والغى ٠٠ فقد صارت لآمون بعد طرد الهكسوس دولة تطاول الدولة ، وأغدق على كهنته الهبات والاموال ولاسيما بعد اتساع رقعة الملك ، حتى صار لهم سلطان المال الى جانب سلطان الدين ، واكتملت لهم أدوات السيطرة جميعا ، فطفغوا وبغوا ، وطمحوا الى السلطان السافر ٠٠ وتبعهم العامة ايمانا بالشعوذة ، وتبعهم غيرهم من كبار القوم ابتغاء المنفعة ، بعد أن صارت لهم خيرا الضياع والاموال فى مصر والشرق كافة ٠٠٠ وليس سلطان المال الطائل بالشئ الذى يحتاج الى بيان فى زمان — كزمانكم — مست فيه الفلسفة الاجتماعية كل جيب ، وكل معدة ٠٠٠ —
— أى والله .. ان هذا الحق ..!

— فهل كان هذا حريا أن يرضى فتى غض الاله اب ، قوى الاصلاب ، كتحمس الثالث ؟ لا وحق مجدو وقادش ويافا والفتوح الغر فى الشام والفراتين ! ٠٠٠ فنام هؤلاء الكهان عن الفتنة حتى ذهب تحتمس الثالث ، وذهب من بعده ابنه المنحرب الثانى (أو أمينوفيس الثانى) الذى كان سر أبية فتوة ، وقوة ، ومضاء ، وجاء من بعدهما تحتمس الرابع الشاب الأملعى المتوثب الى العزة ٠٠ وقد أشرب كراهة كهان آمون ، وما فيهم من نزعات دنيوية تخرج بهم وبالدين عن نصابه الحق ٠٠ فمال الى الدين العريق ، دين منف ، أو مدينة الشمس ٠٠ أقرب الاديان القديمة الى التجريد وأبعدها عن الدنيويات والتجسيم والوثنية وخزعبلاتها ٠٠٠ فاجتمع فى مسلك تحتمس الرابع دافعان متباعدان : هما الغيرة على السلطان ، وكراهية الطغيان من جانب كهان آمون الذين يعمدون الى الدجل والادعاء مع الغوغاء ، ويلوحون بالارزاق لمن لا يجدى معه الدجل والادعاء ٠٠٠ بيد أن الفتى كان أطرى عودا من الصمود لذلك الاعصار الجائح أو الاخطبوط المنتشر فى كل مكان ٠٠ ولم يلبث

الموت أن عاجله في السادسة والعشرين من عمره • فانتبهز كهان آمون الفرصة ليقضوا على تلك الشجرة المعادية من الفراعنة • ولاسيما وبنو الملك الراحل صغار السن لا حول لهم ولا طول

— ولماذا لم يرتق العرش كبير الكهان ؟ أزهدا فيه أم سياسة ؟

— بل سياسة •• فان الناس على كل حال لا يقرون بالملك الا لوارث شرعى •• فلماذا لا يصنع الكهان وارثا شرعيا؟ •• وقد كان ! فصنعوا من أبى وارثا شرعيا ••• جاءوا به ، وكان من أبناء الاسرة فى فروعها البعيدة عن حق وراثة العرش ، كما يأتى المستعمرون فى الزمن الحاضر بأمر كان لا يحلم بالملك فيولونه لكى يدين لهم بالفضل ما عاش ••• — ما أصدق من قال : « لا جديد تحت الشمس ! »

— لا جديد مطلقا •• وفى السياسة على وجه الخصوص •• ولكن كيف يولونه الملك وهو ليس من أبناء الملك ، وللملك ولد ؟ •• لا سبيل الى ذلك الا أن ينسبوه اليه •• ولكن أنى لهم هذا وأولاد الملك معروفون ، سواء أنجبهم من الزوجات أو من الحظايا ؟ لا مفر اذن من الاستعانة بالاله نفسه لحل ذلك الاشكال •• ففى زماننا أيضا كان الآلهة « ممسحة » لاهواء البشر وأخطائهم •• فأذاعوا أن أم أبى قد حملت به من الاله آمون ، الذى ظهر لها فى صورة تحتمس الرابع ، فاقترب منها ومسها كما يمس الرجال النساء ، وحملها تلك النطفة المقدسة ، ايذانا بحققها فى عرش مصر بفعل مباشر من الاله ، صاحب الوادى الأصيل •• وتلك الرواية مرسومة بجميع تفاصيلها على آثار الوالد

— وكيف صدق الناس ؟

— لقد صدقوا ، لأن الجهل أعمى ، أو لأن التواطؤ مع كهنة آمون كان أنفع وأجدى عند طلاب المنفعة .. وهكذا صار أبى ابن تحتمس الرابع بأمرالهى دون أن تكون لتحتمس الرابع يد فى ذلك الانجاب ، فهو لم يكن يكبر أبى بكثير من الأعوام .. وهكذا يرتفع صاحب النسب المغموز فيصبح ابن الاله !

بقية التدبير

فقلت مأخوذة بما سمعت :

— لقد كانت العادة المتبعة أن يتزوج الملك الجديد ابنة سلفه ، ولو كانت أخته ...

— كذلك كان .. فان للمرأة فى دولة الفراعنة حق الميراث مثل الولد ، وقبل الولد فى بعض الاحيان ... مثل وراثة الارض والعقار والبيوت المأهولة ، كى يضطر أبناء البيت الى الزواج من بناته ليحتفظوا بتراث الآباء ، وبذلك يبقى الدم غير مشوب ، ويظل رباط الأسرة وثيقا ، وتظل للبنات المكانة والكرامة من بعد أن يتزوجن ، بما حملن الى بيت الزوجية من مال ...

— ذلك ما علمته يا مولاتى عن عهدكم الزاهر ، ولا زالت أسرنا فى الريف والصعيد تؤثر زواج أبناء العمومة ، بعد أن حرم الدين زواج الأشقاء

— وكان الملك الجديد يرث القصر بحريمه من السرارى والزوجات . ولكن أبى لم يتزوج بنتا من بنات الملك ، ولم يبن بأرملة من أرامله ...

— أتقولين أرامله ، بصيغة الجمع ؟ فهل كان التعدد مباحا ؟ ...

— للملوك وخاصة الخاصة من الناس .. أما سواد الشعب فكان مقيما على الزواج بواحدة ... وكذلك كثير من العلية

- ولماذا لم يتزوج الملك واحدة من هاتيك ؟ أم كان الأمر اختياراً لا الزام فيه ؟

- بل هو فى حكم الملزم . . فليست فى العالم القديم كله حياة مقيدة بالمراسم والتقاليد والاصول المرعية كحياة فرعون مصر . لا فرق فى ذلك بين حياته الخاصة وحياته العامة ، لأن فرعون كل لا يتجزأ و « كينونة » عامة تملكها واجباتها ملكا خالصا ، ولا مناص من ذلك . . . والى هذا يعزى السبب فى احتياج الكهان الى أسطورة لتبرير ارتقاء أبى عرش الفراعنة

- هى الثورة اذن . . . أم هو الحب والغرام ؟

- بل هى بقية التدبير ، التقت بهوى قلب شاب . . .

- وكيف كان ذلك ؟ . . .

- كان مراد الكهنة اقضاء بيت تحتمس الرئيسى عن العرش ، فأقصوا البنين ، وكان اقضاء البنات هو تمام التدبير . . .

- ولكن كيف يتم ذلك ، فأكبر الظن أنه يحتاج الى تدخل جديد من آمون ؟!

- لا عليك ! . . فان الذى يتدخل « آمون » لانبجابه من صلبه يحق له أن يواجه شعبه بما يشاء فى أمر نسله وصهره . . . وكان أبى - وهو أمير - دائم الاتصال بكهان من سدنة آمون ، لأنه كان متيما بابنة أحدهم « يوا » - ولم يكن من كبارهم - وكانت زوجته « تيو » وصيفة من وصيفات القصر . فلم يكن اختيار أبى اعتباطا ، بل لتدلّه بابنة الكاهن ، وصلته بالكهنة صلة تحمل على الاعتقاد فى طواعيته لهم . . فما استدار العام حتى تم التدبير المقدر ، وتزوج أبى من الملكة « تى » ، فرفع مقامها فوق كل مقام ، وجعلها الملكة الرسمية وصاحبة الصدارة والشورى فى كل

أمر • وجعل والدها على رأس رجال حاشيته ، ورفع أمها
الى مقام الأميرات ، فصارت من «الحريم الملكي» •• لا بمعنى
أنها زوجة ، بل بمعنى انها من النساء أعضاء بيت فرعون
المباشر ، مثل الأم والأخت وما الى ذلك •••

— مرحى ! ان فى عروقتك اذن دماء الكهان من سدة
آمون ؟ ••

— ما فى ذلك شك ! بل انه أثبت من نسبة دمي الى
تحتمس •• ولم يكن زواج أبى شيئا عاديا ، فما هكذا
يتزوج أبناء الآلهة ! بل جعل من ذلك حادثا قوميا ، يسجل
فى الآثار وتقام له نصب التذكار !

تركة حافلة

فقلت :

— لا أدري يا مولاتى أيهما أروع : مكانك فى التاريخ ،
وفى ثبت الجيالات الخالدات ، أم جرأتك فى الحق ، على
نفسك ، وعلى آبائك الميامين ؟ ••

فزمت شفيتها فى هدوء الخالدين ، الذين ودعوا هوى
الدنيا ، وأجابت :

— لا يغرنك منى مثل هذا يا بنية •• انما هى حكمة
لا فضل لنا فيها ، لانها لم تظهر الا بعد فوات أوان الاهواء ،
وانقطاع اللبانات ••• ولا فضيلة الا حيثما تكون مغالبة
هوى وصراع شهوة ! ••

— وهل أفهم مما قالت مولاتى عن والدها المنحطب الثالث
ووالدتها ، ان العصر كان عصر انحلال ودولة تنحدر الى
الزوال ؟ ••

— أجل ، تفهمين ذلك ، وتفهمين عن حق •••

— ولكن الدول يا مولاتى لا تدول بين عشية وضحاها •
ولم يكن مرتقى والدك العرش الا كالغد القريب بالنسبة

لعهد الملك تحتمس الثالث .. صاحب قادش ، ومجدو ،
ووادى عرة ، وصاحب الملك الذى لم يهياً لأحد من قبله فى
الحافقين .. فكيف انتقل الحال الى نقيضه فى طرفة عين ؟
- هذا من ذاك ! ..

- لم أفهم
- بل ستفهمين عن يقين .. أتعرفين ترهل الشيخوخة
المترفة بعد الشباب الكادح ؟ .. أتعرفين نابليون « سنت
هيلانة » بعد نابليون « اوسترلتز » و « ينا » ؟ بل أتعرفين
قوله عز من قائل : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها
ففسقوا فيها » ؟ وهل تعرفين مذهب فيلسوفكم الاجتماعى
الحصيف ابن خلدون ، عن مراحل الدول وأطوارها من
البداءة الى الحضارة والرخاوة ؟
- أعرفها مولاتى ولا أنساها

- لقد عرفت اذن كيف سرى الانحلال الى هذا البنبان
المشيد ، ونخر السوس فى قوائم ذلك المجد الوطيد
فقد جنى خلفاء تحتمس الثالث ثمار نصره وجهده يانعا
جنيا ، وأغناهم بأسه السابق عن جهاد لاحق ، فاذا طاعة
شاملة ، وسلم دائم ، وذهب يتدفق ، ونعيم مقيم فأثرى
التجار ، وتضاعفت الاموال ، واستنم الناس للترف ، كما
يستنيم الشيخ أو الكهل للثروة الهابطة ، فياً كل حتى
يتخم ، ويشرب حتى يثمل ، ويكون همه فى اللذة الصارخة
.... فهل بعد ذلك تهون عليه تضحية فى سبيل قيمة
خلقية ، أو تغلبه النخوة فى سبيل حق مهدر ، وهل يكون
فى مثل ذلك المجتمع مكان لرعاية الصالح العام قبل المنفعة
الخاصة ؟

- كلا وربى
- صدقت ! وهكذا تنحل الدول ، ويصبح للأبهة المحل
الأول ، وتكثر المفاسد ، ويباع كل شىء باللذة العاجلة ،

حتى الدم ، وحتى رجولة الرجال ، ويكون التفاخر بالبذخ والمظاهر هو قانون الجماعة ...

— بنس هذا ...

— أجل ... فهذا هو أس الفساد

— هو فساد الأمة اذن ، لا فساد الحاكمين ؟ ...

— ومتى انفصل هذان ، الا فى ذهن كليل وعقل هزيل ؟
الحاكمون خليفة المحكومين ، وصنع أيديهم ، وصدق القائل
الكريم « كما تكونوا يول عليكم » ...

— أبوك امنحتب الثالث اذن مظلوم ... فقد تلقى هذه
التركة عن تحتمس العظيم ...

— أجل ، تلقاها وتلقته مصر ، سما قاتلا يكمن فى أكاليل
النصر ! وكذلك كل نصر .. ففى المزيد من النفع ضرر ،
لأن العالم كله شىء واحد ، وليس فى استئثار عضو من
الجسم بمعظم الدم خير له ولا للجسم كله ، وان توهم أنه
الظافر المحدود حمقا منه وغفلة ... ولكن الانسان ظلوم
جهول !

أعقاب البيوت

فتمهلت قليلا ، ثم عقت على كلام الملكة نفرتيتى فى
استحياء :

— مولاتى .. فى النفس خاطر عن لى ...

— هاتيه ولا تكتمى ...

— انها ظاهرة مشاهدة فى هذا الزمان ، وأحسبها قديمة
قدم المجتمعات كافة ، أن تكون أعقاب البيوت دون بواكيرها
فى البأس والفتوة .. فالأوائل يبنون ويشيدون ، ثم تأتى
الأعقاب فلا تجد زيادة لمستزيد ، فتستنيم الى ما يفى عليهم
عمل الحدود ...

— هو ذلك ٠٠ ولكن نزيد عليه شيئاً ، أنتم أهل هذا الزمان في مصر والشرق أولى أن تلاحظوه ، وتولوه العناية كل العناية ، وهو وبال الاستعمار والفتح على المستعمر والفتح وان طال المدى : انظرى أين دالت دولة روما القديمة ، وكيف تطرق اليها الفساد باتساع الملك وكثرة الفئ ! وانظرى دولة الأكاسرة ، ثم دولة العرب ٠٠ واعلمى وثاقه أن هذا الداء بعينه هو الذى سيقوض كل مستعمر غاصب فى هذا العصر ٠٠ ولكن الانسان عجول بقدر ما هو جهول ٠٠ — صدقت مولاتى ٠٠٠

— فاذا كنت مستعدة لاستخلاص العبرة النزيهة الصادقة على هدى وبينة ، ولست ممن يتساقون وراء الالفاظ الضخمة والاهواء العمياء ، فاعلمى أن كل مجد يقوم على الفتح والغلبة ينتهى بانهييار الفاتح الغالب ، بما يدخل فى نفسه من الغرور وما يستنيم به الى التنعيم والترفة ، فلا يكون همه أن يعطى الدنيا من نفسه ، بل أن يجبيها لنفسه ٠٠٠ وتلك هى الآفة الكبرى ، التى لا تكاد تكون آفة سواها للدول والافراد على السواء : فمن نظر الى الدنيا على أنها لهو ساعة ومتاع حين ، يأخذ منها ولا يبذل لها ، كان حرياً أن يكون وجوده عالية على ركب الحياة ، تخسر بوجوده لانه مستهلك مستنفد ، ولا تخسر بموته لانه لم يكن عاملاً فاعلاً فيها بالخير والنماء ٠٠ فأى ما كان هذا الشخص من الأبهة والمكان ، فمثله فى الدنيا كمثل البرغوث ، ولو حلى بالذهب واكتسى الارجوان ٠٠ — مولاتى ! ما أحفل التاريخ بالبراغيث تحت أكاليل الغار ونصب التذكار ٠٠!

— بل ما أكثرهم فى البيوت والطرقات ٠٠ فمن ذا الذى يعيش لما يفعل للناس لا بما يسلبهم اياه ٠٠؟ أف لنا معشر البشر !

وكأنما أدركت الملكة أنها اندفعت فى الحملة شيئاً ما ،

فأحبت أن تخفف على وقع الأمر ، فاستطردت فى صوت خفيض كالمعتذرة :

— لا عليكم أهل الدنيا ٠٠٠ فداؤنا داء عياء ، ونحن كما قال حكيمكم « فى الأصل أغبياء » ٠ كذلك أنا يا بنية ، وكذلك تكونون ، فما أقل ما يتعلم الناس من أطوار التاريخ وتجارب الايام ٠٠٠ فلا تحسبى أنا كنا خيرا منكم ، وانما كنت أتمنى أن تكونوا خيرا منا بعد كل هذه الاجيال ٠٠٠ فابتسمت وقلت كالمازحة :

— وهل نسيت أننا أعقاب السلالة يا ذات الجلالة ؟
فابتسمت الملكة ابتسامة جذابة ، وقالت وهى تعرك أذنى :

— ويحك ! وهل نسيت يا بنية اننا نوؤمن بالبعث وتجدد الحياة ٠٠ فلماذا لا تتجددون ، ولماذا لا تبعث البلاد على أيديكم أعز نفرا ، وأوفر حكمة ، فتكون نعمة على الدنيا وبركة ، وتسهم فى رخاء البشرية وارثائها ؟
— آمين ٠٠٠

— لقد ورث أبى التركة ، فمضى فى التيار ٠٠٠ حتى بلغت الامور غايتها ، ولكن بعد عهده ، فكان هو الذى « استدان » من حساب المجد وصلاح الامور والعدل والحق ولكنه لم يقم بالسداد ، ولم يطالب به فى حياته ٠٠٠
— كذلك نحن فى هذه الازمان الاخيرة ، بل وفى جميع الازمان ، الآباء يأكلون الحصرم ، والابناء يضرسون

تبعات الملك

الواجب الأول

وشردت الملكة ببصرها شيئا ما ، ثم عادت تقول :

— ولكن لا تظنى يا بنية ان الملك فى عالمنا القديم ، فى هذا الوادى الكريم ، كان لهواً وزهواً ، وحكما هو التحكم ، والتماس المغنم ٠٠٠ كلا ! وانما هى تبعات جسام ، وعبء من عرفه لم يغبط عليه حامله ولو كان فى مقام الالهة المعبودة ٠٠٠

— ولكن يا مولاتى ، ليست كل التبعات سواء عند الانسان الواحد ، وهى ليست فى مجموعها سواء عند الاجيال من الناس ٠٠

— الا تبعات فرعون مصر ! ٠٠ فقد حددت تحديدا دقيقا ، يعرف أولها من آخرها ٠ فأولها على الاطلاق هو واجب فرعون نحو أصحاب الوادى الأصلاء ، الذين يحكم هو باسمهم وبالوكالة عنهم ، وهم آلهة وادى النيل

— لكأنى بفرعون أول من حكم بالحق الالهى المقدس ؟ ٠٠ — ولا مراء ! فقد كان الأمر كله من قبل دينا ، وكان كله للآلهة ٠٠ فالآلهة فى العالم القديم كانت مصدر السلطات ، أما اليوم فمصدر السلطات جميعها هى الائمة ٠٠٠

— مولاتى ! ٠٠ أحسرة على هذا المآل ؟

— لا وربى ! ٠٠ وانما هى الحسرة على حالنا القديم ، فقد كنا ملوكا مرهقين بالمسئولية ، لأن المسئولية دائما على قدر الحق والسلطة ٠ أما اليوم ، فما أهون العبء ، وقد صار الناس هم الملوك المسئولون عن ولاية أمرهم ، وولاية أمرهم

— ولكن مولاتى ، أى شىء يستطيع فرعون أن يؤديه
للالهة ، وما مظهر أدائه حقهم ؟ ٠٠٩

— انظرى حولك على ضفتى هذا النيل ، ترى الهياكل
والمحاريب ، وبيوت الأرباب والربات ٠٠ تلك هى تحية
ملوك مصر القديمة لالهة مصر القديمة ٠٠٠ فكل فرعون
يقدم — على قدر وفائه وتقواه — من تلك الصروح ما استطاع ،
وعليه فوق هذا أن يتعهد بناء السلف بالترميم والإصلاح
والتعمير ، حتى تظل بيوت الالهة قائمة مزدهرة موسعا
عليها فى الارزاق ، بما يوقف عليها من الاموال والضياع
والهبات

ذو الدارين

فقلت للملكة :

— ان لأبيك امئحتب الثالث ، فى ذلك ، باعا طويلا ،
فهو من أبر الفراعنة بالأرباب ٠٠٠
— هذا صحيح ، ولاسيما آمون ٠٠٠
فقلت كالمازحة :

— ولكن هل نعد بره بالاله آمون تقوى وتدينا ، أم برا
ومحابة عائلية ؟ أليس قد زعم للناس انه ابن آمون ، تراءى
لأمه وأودعه أحشاءها فى صورة البشر ؟ ٠٠٩
فابتسمت الملكة وقالت :

— هما الأمران معا ، فهى تقوى ، وهى بر بنوى ٠٠٠
ويرجح هذا الظن ، أنه تخير تحية آمون على اعتبار أن الولد
سر أبيه ، فتخيل أن ما يطيب له سيطيب لأبيه ٠٠٠
وزادت ابتسامة الملكة الحسناء وهى تستطرد بعد لحظة :
— وكان أبى مولعا بالنساء ولعا شديدا ٠٠٠ فغير عجيب
على هذا القياس أن يهتم بسعادة أبيه والاهه آمون من هذه
الزاوية بالذات

فأخذتني الدهشة ، وقلت فى لهجة الانكار :

— ما تقولين يا مولاتى ؟ ان الاسطورة تنسب حمل والدة
أبيك الى فعل آمون ، فهل ترى والدك العظيم كان يقدم الى
آمون « ضرات » لأمه من بنات الناس ؟ انها لخدعة أخرى
باطنها سر رهيب . . . هو متاع فرعون بالنيابة عن آمون
بهاتيك النساء

فضحكت نفرتيتى ، وقالت وهى تقرص خدى :

— وهل كان أبى بحاجة الى هذه الخرافة أو الاسطورة
ليمتع نفسه بما يشاء من النساء ؟ كلا ! . . فالتاع بالنساء
لا يحتاج الى هذا العناء الذى اضطر اليه فى سبيل ارتقاء
العرش

— ماذا اذن كان يفعل لأبيه أو الالهة ؟

— شيئا يسيرا جدا لو تعلمين . . فهو قد تصور أن أهم
ما يشغل والده هو عرائسه ، قياسا على نفسه ، فبنى له
ديار الاعراس ، ومنازه الحريم . ولاسيما لزوجته الكبرى
المعبودة « موت » ، التى تضارع مكانتها فى حريم آمون
مكانة والدتى « تى » عند أبى . فجعل لها قصرا فى الكرنك
بالغ الرونق والبهاء . وجعل لآمون زورقا فاخرا مغطى
بالذهب الخالص ينتقل فيه كل عام من قصره الرسمى الى
معبد الاقصر حيث يفرغ لحريمه حيناً

— ما أظن تلك العادة ترجع الى أيام والدك ؟ . .

— بل هى تسبقه طبعاً . . ولكن المهم أن أبى عنى بهذا
كثيراً ، فرتب له الزورق ، والقصر الذى يمتع فيه نفسه
بلذة الهوى . . . أما المناسبة نفسها فقديمه جدا ، ولم
يرتجلها الكهان اعتباطاً ، بل فى موسم الفيضان ، فى شهر
« بابه » رمزا الى زواج النيل بأرض الوادى زواجا يجنى
الناس منه الحصب والخير العميم . . . وقد افتن أبى فى بناء

القصر فجعله واسع الأرجاء فسيح الرحاب ، وزخرف كل
موقع للعين فيه من السقف الى الارض الى الجدران والعمد
بروائع الفن الزخرفى الفرعونى ، وعنى بتذهيب الابواب ،
وأعلى برجه الى عنان السماء . ولم يكفه هذا فجعل الطريق
بين قصره الرسمى فى الكرنك وقصر الحريم فى الاقصر شيئا
فذا فى تاريخ العمارة . فعلى الجانبين تماثيل سباع لها
رؤوس كباش ! . السباع رمز القوة فى النزال والنضال
والكباش رمز آمون نفسه ، لانها مضرب المثل فى الحُصْب
وقوة الانسال . وبذلك تجمع تلك التماثيل بين القدرة على
الدفاع ، والقدرة على المتاع فهى تحية بلغة ذلك الأوان
وان اختلف مدلولها باختلاف الزمان ! . . .

— يا لها من رموز ، ويا لها من تحية ! . .

— تلك يا بنية أول واجبات الملك نحو الالهة ، وذلك
بعض ما قام به أبى . . خصصته بالذكر لأنه أظهرها
وأكثرها دلالة على تكوين طبعه . أما سائر واجبات فرعون
فهى الحكم

— هذا طبيعى يا مولاتى ، ولكن كيف يحكم . . . اننى
لأعجب كيف يتسنى لحاكم فرد مثله أن يزن الأمور ويحكم
التدبير ، وكيف لا تودى بحكمته غواية السلطان وغروره ؟ !

— رويدك ! فان حكومة فرعون موضوع وهم طائش شاع
فى الناس بغير مبرر . . أجل انه وكيل الالهة على الوادى
ولا شريك له فى ذلك المقام السامى . ولكنه ليس حاكما
مطلقا . . . كلا ، بل هو على النقيض من ذلك

فندت منى كلمة ساخرة قاطعت بها الملكة دون أن أتنبه
لها :

— لعله كان ملكا دستوريا اذن ؟ . . .

فنظرت الى الملكة نظرة جد ، وقالت بكل وقار وثقة :

— وكذلك كان فرعون فعلا ، فهو أول ملك دستورى فى تاريخ العالم !

— وى ! ان هذا لعجيب ٠٠٠ وعفوك اذا قلت انى لو لم أسمعك منك يا صاحبة الجلالة لما أعرتك اهتمامى وتصديقى ٠٠

لباب الناموس

فقلت نفرتيتى فى هدوء وأناة :

— أعيرينى سمعك ٠٠٠ وحاولى أن تتصورى الأمور بالعقل لا على ضوء ما ملأ الناس به أذنك من الاخطاء والاوهام

— انى مصغية ٠٠ فهاتى ٠٠

— ما معنى الدستور ؟ انه النظام الاساسى الذى تقوم عليه قوانين الدولة ، فلا تكون العوبة لدى هوى ٠٠٠ أليس كذلك ؟

— بلى ٠٠ هو كذلك

— ولم تكن دولة عريقة كمصر خالية من ذلك القانون الاساسى الذى ينظم سياسة مصالح الامة • وانما يخطئ الناس فيحسبون أن مصر لم تكن بلدا دستوريا ، لانهم يخلطون بين النظام الدستورى اطلاقا ، والنظام الديموقراطى على وجه التحديد • فقد تكون الدولة دستورية ولكنها غير ديموقراطية ٠٠٠

— ما أصدق هذا يا مولاتى ، وان غفل عنه الناس

— وغفل عنه شاعر منكم ، فقال يعير فرعوننا من أسرتى قائلا :

فؤاد أعز بالدستور دنيا

وأعظم منك بالاسلام دينا

فأما الدستور ، فلکم أن تفخروا أن مصر القديمة كانت

على الدوام بلدا دستوريا ، فلم يحكمها طاغية مطلق السلطان
قط ! وأما الاسلام يا بنيتى فأنعم به وأكرم .. ولكن
ما ذنب فرعون ؟ وهل كان عليه أن يعتنق الاسلام قبل بعثة
نبي الاسلام ؟ ...

— مولاتى ! انه قول شاعر على مذهب القائلين : ان أعذب
الشعر أكذبه .. ولكنى مشوقة الى معرفة فحوى دستور
مصر القديمة ...

— ذلك يا بنيتى هو « الناموس » . فالسلطة فى مصر
مشتقة من الدين .. وفرعون يحكم باسم الالهة لانه وكيلهم
أو من ذريتهم . والدين — ولاسيما الديانات القديمة —
ينظم كل شئ فى حياة الناس والجماعة بطقوس وعقائد
لا سبيل الى التحرر منها . وفرعون أول من يخضع لها ،
وبها يسوس الناس .. وكل شئ فى حياته الخاصة والعامة
ترسمه له أوامر الدين ونواهيه ...

— أفلا يقول : اقتلوا فلانا ، فيقتل ... أو : أطلقوه ،
فيطلقونه ؟ ...

— يقول ، ولكن لا اعتباطا ، بل بحسب الناموس .
فالناموس ينظم وظائف الدولة وسلطاتها ، ويفصل بين
سلطة الادارة أو التنفيذ ، وسلطة القضاء .. وأما سلطة
التشريع فذلك هو ناموس الالهة الذى يتولاه الكهنة
بالتفسير والتعديل حسب مقتضيات العصر

فى مصر نظام

— عجبا .. ألم تكن أموال مصر كلها أموالا خاصة لفرعون ؟
— أين يذهب بك وهمك يا فتاة ؟ أتظنين فرعون قاطع
طريق يجمع المال غصباً من الناس كما يتراءى له ؟ كلا
وأبيك ! ففي مصر دولة ونظام ، ونصيب معلوم من الاموال
للالهة ولبيت المال ... وهناك رجال أمن يقومون على

النظام ، وجباة يحاسبون على ما يجبون من الخلق حسابا
عسيرا ...

— لقد كان له وزراء اذن ؟ ...

— ان لم يكن لفرعون الوزراء ، فلمن يكونون ؟ ... لقد
كانت السياسة شيئا عريقا فى مصر ، فكان فيها طراز من
رجال الدولة يعتمد عليهم فرعون ويحترمهم ويصغى لنصائحهم
وسأقول لك خبرا يدهشك حقا ... ان انجلتوا تجعل وزير
العدل أو قاضى القضاة مقدما على جميع الوزراء ، ومرتبته
أكبر من مرتب رئيس الوزراء ...

— هذا صحيح ...

— انهم مسبوقون فى هذا ... فذلك كان وزير العدل
على عهد الفراعنة !

— مرحى ! مرحى !

— وأكثر من هذا يا بنت هذا الزمان ، هناك حكاية
يتشبهون بها اليوم ، هى « اللامركزية »
— أجل ...

— وفى هذا أنتم أيضا مسبوقون ، مسبوقون بألاف
السنين ! فكل وال فى ولايته فرعون صغير ، تتبعه سلطات
قضائية وإدارية ومالية وكهنوتية . ولكل ولاية مراسم
الاهها الخاص — وهى فى مجموعها وجوهرها متقاربة —
ومجلس شوراها الذى يرجع اليه الأمير فى أمور الاقليم .
وكانت تتبع المعابد الكبيرة مدارس يتعلم فيها الموظفون
ناموس الدولة ، وحقوق الناس وحدود المعاملات ، حتى
تكونت مع الزمن « بيروقراطية » مصرية ، وطبقة وسطى من
الموظفين تطاول طبقة الاعيان ...

وعندئذ غلبتنى سليقة « المعابثة » فقلت مازحة :

— لم يبق يا مولاتى الا أن تقولى انكم عرفتم فى زمانكم قانوننا الحديث : « من أين لك هذا ؟ »

وبكل جد ووقار قالت الملكة :

— وهذا أيضا عرفناه بالتأكيد .. فكان المتهم بالاختلاس يسأل عن مصادر غناه ، كما يسأل عن غنى ذوى قرباه وامراته وبنيه !

— مولاتى .. لا أدرى أى الشعورين يغلب على نفسى : شعور الفخر بالاجداد الميامين ، أم شعور الحجل من الحاضر المتخلف ..

— لا عليك .. فهناك شىء يحق لك أن تفخرى بأن زمانك لم يتخلف فيه عن زمانى

— اسعفينى به مولاتى .. ما هو ؟

— ذلك يا بنية هو نظام القضاء المصرى .. فقد كان دائما فى مصر قضاة ، وقضاةكم اليوم جديرون بأبائهم الاولين على عهد الفراعين ...

— ان قضاءنا قبس من شرع الله ، ومن نظم الغربيين ... وقضاؤنا نحن كان قبسا من دولتنا الدستورية ، لا فضل فيه لأحد علينا من العالمين ... وانه لعمرى لقضاء متين ...

— زدينى بيانا يا جدتى يا ذات الجلال والجمال ...

— أول ما يلفت النظر هو التقارب بين تقاليد قضائنا القديم وتقاليد قضائكم الحديث .. فالقضاة ورجال العدل مهما صغرت وظائفهم يعيشون دائما بمعزل عن الناس ، وتحرم عليهم التجارة وتبادل المجاملات والهدايا ، لضمان الثقة فى ضمائرهم ، ولتمام النزاهة وكمال الهيبة . فالعدل أساس فى الدين عندنا ، والحساب والعقاب فى الآخرة ركن أساسى من أركان الدين ... كما يحرم على القضاة استغلال

النفوذ ، فلا يذهب أحدهم الى السوق بنفسه مشترى حتى لا يخرج الناس فيبيعونه بالبخس تزلفاً أو خوفاً ...

— ان هذا والله لغاية الكمال فى تقاليد القضاء ...

— ولا تحسبن عين فرعون وخاصته غافلة عن أحد ..
فاذا ثبتت تهمة على قاض أو رجل من رجال الضبط والتحقيق كان عقابها جدد الأنف ، ليكون عبرة وسخرية بين العالمين ...

— ذلك يا مولاتى فظيع ...

— ولكنه فى عين العدل ليس أفظع من الرشوة وفساد الذمة واستغلال النفوذ على حساب الضعفاء والمساكين ..
فحماية هؤلاء أوجب على ولى الأمر من حماية أنوف خدام الدولة الخائنين الامانات والعهود .. واستغلال ضعف الفقراء وفقرهم أشنع جريمة يقع فيها موظف عام

— وهل كان ذلك مرعياً فى شئون الرزق وجباية الاموال الأميرية ؟ ...

— ولا مرء .. فقد كان منصوباً فى التعليمات المالية على التنازل عن ثلثى الضرائب المتأخرة اذا كان المدين فقيراً معسراً ...

— ليس بعد هذا عدل ولا رحمة ...

سواسية كأسنان المشط

— بل خير من هذا يا بنت هذا الزمان أن الناس عندنا كانوا أمام القانون واجراءات القضاء سواسية كأسنان المشط ...

— حتى عليه القوم والخاصة منهم ؟

— نعم حتى الأكابر والخاصة ! ولو كانت فيهم بنت فرعون أو زوجه أو أخته .. فلا محكمة لهم خاصة ، بل

لا يطلب فرعون عقد المحكمة في مجلسه أو تحت رئاسته ..
كما قد يحق له في جرائم الخيانة العظمى ، وقد سلفت في
التاريخ الفرعوني محاكمة قوم من بيت الملك بجرائم غير عامة
ولا تتعلق بنظام الدولة وأمنها ، فجرت المحاكمة أمام
القضاء العادى

— مرحى .. مرحى ..

— وحقوق الدفاع مكفولة كل الكفالة لكل متهم مهما كان
جرمه .. ولكن الضرب الموجه كان من أدوات التحقيق
اللازمة في تنظيم الجنايات ، وأحسب أن هذا شيء قد برئتم
منه يا حفيدتى ...

فتنحنحت كأن شيئا يشغب في زورى وغيرت مجرى
الحديث :

— ولكن أين كانت تعقد المحاكمات ؟ فى العلن أو فى الخفاء ؟

— كثيرا ما كانت المحاكمة تعقد فى موضع الجناية ، حيث
تؤثر ظروف الجريمة على أعصاب الجانى فينهار انكاره
ويعترف .. ولكن العلانية لم تكن شرطا للمحاكمة ،
لأن السلطة لا تستمد من جمهور الأمة ، فلا محل للرقابة
الشعبية . أما العقاب فتتوخى فيه العبرة ، ولذلك
كثيرا ما يكون على رؤوس الأشهاد ...



وقلت لنفرتيتى :

— آمنت يا مولاتى أن فرعون لم يكن طاغية على قومه ،
وان التقاليد الدستورية كانت راسخة فى وادى النيل على
عهد الآباء الأجداد

— بل انه لولا غرور المنصب لفر الفراعين من قيود
حياتهم ، لأنهم كانوا مقيدىن « بروتوكول » دقيق فى كل

شئ ... ففى بكرة الصباح يستيقظ فرعون فيقرأ البريد، ثم يستحم ويرتدى شارات الملك ، ويقدم القرايين للآلهة . ويصفى لصلاة يتلوها كبير الكهان .. ثم يوزع ساعات النهار بين المقابلات الرسمية والنزهة والصيد .. وهو فى ذلك كله محوط بالحاشية ، وبهالة المنصب الرفيع ، فلا يتحرك حركة الا بمقدار يقدر لها من قبل ...

— ما أعجب مصائر البشر .. يظن الواحد منهم أنه ملك الناس ، فاذا الناس يملكونه ، حتى فرعون ! فهو لا يعدو أن يكون « موظفا عاما » بل « مجندا » تحت التاج لخدمة أمة ، يحسب هو ويحسب الناس أنها ملك يمينه !..

— هذا صحيح .. ولكن لا تنسى يا حفيدتى أن هذه الأعباء الجسام يتفاوت الملوك والفراعين فى صدق النية والجهد للنهوض بها ، فمنهم من ينهض بها خالص القلب لها ، ومنهم من يخلبه البريق والألاء ، فلا يحمل من تلك الأعباء ، الا القدر الذى يسر له المتعة بأبهة العرش وجاه الملك ...

أُبْحَثُ الْمَلِكَ

إذا فسد الناس

قلت للملكة بعد هذا :

— ان الواجب وقيام الناس به أمر حير الخلق منذ زمن بعيد . بل هو أكبر هموم المصلحين والدعاة . . ولكن المشكلة الكبرى في هذا الموضوع ، هي ان فريقا من الناس يقول : « أصلح الراعى تصلح الرعية » . . وفريق غيرهم يقول : « أصلح الرعية يصلح الراعى » فضحكت نفرتيتى وقالت :

— ما أشبه هذا في ظاهر الأمر بالاشكال القديم « أيهما أسبق في الوجود : البيضة أم الطائر ؟ » . . ولكن الامر في موضوعنا أيسر من البيضة والبائض . فلا شك أن الجماعة أسبق الى الوجود من القائمين عليها . ففساد الناس ينجم عنه فساد الحكام . أما الحاكم الفاسد في الأمة الصالحة فأمر لا يقوم ، وإذا قام لا يستقيم ولا يدوم . . فلا فساد الا بالتواطؤ الضمنى بين الحاكم والمحكوم

— وشبهة أخرى يا ذات الجلالة . .

— هاتيها

— القوانين . . أليس صلاحها ضمانا لصلاح الحال ، لأنها تقيد ولاة الأمر بقيودها ، وتحملهم على الحذر من الوقوع تحت طائلها ؟ .

— قول مردود . . فليست القوانين مجدية بغير الضمائر ورقابة الاحساس الخلقى في الجماعة الواعية . . وقد صدق ذلك الحكيم الاغريقى الذى تلا زماننا بزمان طويل ، حين قال

ان خير القوانين يفسد فى الجماعة الفاسدة ، وأسوأ القوانين لا يضر — اذا لم يصلح أمره بالتطبيق — فى الجماعة الفاضلة — العبرة اذن بالأخلاق ..

— أجل .. ولكن حذار من فهم الأخلاق على صورتها السلبية

— وما الأخلاق السلبية ، وما الأخلاق الايجابية يا مولاتى ؟
— الأخلاق السلبية هى التى تقوم على « الامتناع » عن الاعمال المردولة . فالشرف فيها عدم الزلة .. والامانة فيها عدم الخيانة ، والخير فيها عدم فعل الشر ...

— سمعنا ووعينا .. فما الأخلاق الايجابية اذن ؟

— هى تلك التى تقوم على « فعل » الفضيلة وممارستها ، ولبابها كله هو حمل المسئولية والاخلاص فى أدائها ...
والشجاعة فى محاربة الفساد ، والصلابة فى الصمود لغواية الشهوات التى تضر بالجماعة . فلا أخلاق بغير مسئولية ، ولا فضيلة بغير شجاعة وانكار للذات

— كل هذا جميل .. ولكن كيف تكون المسئولية بالنسبة لفرعون وهو مصدر السلطات ؟ ..

— على رسلك .. انه مصدر السلطات بوصفه وكيل الآلهة ، فهو مقيد بالناموس ..

— ولكن اذا قلنا ان فساد الجماعة هو علة فساد الحكام ، تعارض ذلك مع القول بأن فرعون لا حساب عليه من الأمة . فانما يحسب حساب الرأى العام من يخشى غضبته ويعتمد على ثقته ...

— ليس هذا صحيحا وان بدا أنه صحيح ... فانه ما من انسان مهما علا مقامه يعيش مستقلا عن جو المجتمع وقيمه الخلقية ، فهو متأثر بها لا محالة ، منساق اليها فى الغالب الأعم . يضاف الى هذا أن كل انسان محتاج الى الشعور

بتقدير الناس له ، فلا يستطيع أحد أن يضرب بذلك التقدير عرض الحائط ، سواء كان هذا التقدير عن حب أم خوف .. ومن هنا كان فساد الناس وانحطاط مستوى قيمهم الخلقية شرطا أساسيا لفساد الحكم وهبوط مستواه
- ذلك لعمرى فصل الخطاب ...

- وفيه تعليل التحول الذى بدا واضحا فى عهد أبى المنحطب الثالث .. فقد تحول الملك من الجدد الى الزهو والأبهة والتقلب فى النعيم . ولكنه لم يصل الى حد الاستهتار التام ، وما كان ممكنا أن يصل الى هذا أبدا ...
- ولماذا ؟

- لأن الحكومة لا تفسد جزافا ، بل بقدر فساد الزمن . فأمام فرعون ناموس قائم - وان كان التساهل فى ظروف الانحلال ممكنا - وكان أمامه سلطان الكهنة وأمراء الأقاليم .. ثم أن الأبهة نفسها تلزم صاحبها بنوع من الكرامة والترفع - تسمونه الارستقراطية بلغة هذا العصر - يغنى عن الغيرة الحقيقية على مبادئ الأخلاق والصالح العام ..

- قصارى القول اذن يا مولاتى أن عصر أبيك كان عصر تحول عن العمل الى الترف ، ومن الخدمة العامة والبذل فى سبيل الجماعة الى المنفعة الذاتية وتكالب على المغنم والذات
- ذلك كذلك واأسفاه !..

اعتاب فرعون ..

وأطرقت الملكة حينا ، فلم أرد أن أعكر عليها صفو تفكيرها ، الى أن رفعت رأسها ، وصعدت آهة تنبى عن حسرة ، فقلت :

- ما خطب مولاتى ؟

- لا شيء .. أنه الحديث يا بنية ، والحديث ذو شجون .. فقد تذكرت ملاعبى فى طيبة ، وفى أرباض مدينة حابو على

يمين النيل ، وفي منف حاضرة جيش فرعون اذا هجرت
حرارة الصيف ...

— رعى الله مولاتى ... أهو الحنين الى الصبا الفينان ؟
— أجل ... ففى تلك الملاعب من ساحات قصور فرعون
أبى ، أو أعتاب فرعون كما كان يدعوها الناس ، نشأت بين
البر والحنان والتعظيم ..
— وكيف كان مقامكم بها ؟

— أطيّب مقام ! ففى أوّان الشتاء كان مقر أبى الرسمى فى
قصره الملكى بطيبة ، التى جعلها وعمرها حتى صارت أجمل
عواصم الدنيا حتى ذلك الزمان . وجعل قصره فيها تحفة
فى الأبهة التى تخشع لها القلوب .. ولكن أمى « تى » كانت
تكره الإقامة بذلك القصر ، لثقل الهواء فى المدينة الكبرى ،
أو لكراهتها جو القصر الرسمى الحافل بالضرائر والحظايا ،
فابتنى لها أبى قصرا على يمين النيل ، حيث الهواء النقى فى
حضن الجبل ...

— أعن يمين النيل تقولين ؟ .. أليست الضفة اليمنى
مدينة الموتى يومذاك ، بل هى كذلك الى اليوم فى بلاد من
الصعيد ... مثل المنيا من أعمال الأشمونين ؟ ..

— أجل .. كانت الضفة اليمنى مدينة الموتى ، ولكن
أبى لم يأبه بالتقاليد وابتنى لأمى قصرا ريفيا فى ذلك المكان ،
تحيط به حديقة غناء ، فجاء آية فى الترف والابداع الفنى ،
مع بساطة تشيع الهدوء فى النفس ، وتوخ للظل ورطوبة
أنفاس الهواء تحت السقائف والعريشات ... أما الرسوم
التي تغطى الجدران فلا حد لروعيتها وما تسببه للنفس من
راحة وانطلاق ... ومن أسف أنه قد عفى عليه الزمن ، كما
عفى على قصرنا الرسمى فى طيبة ..

— أجل ، لقد زالت من الوجود ديار الفراغة ، ولم تبق
الا قبورهم ...

— ولا عجب يا بنية!.. فقد كنا قوما نؤمن بالحياة الخالدة بعد الموت ، وعودة الروح الى الجسد ، وكنا نعلم أن هذه الحياة الدنيا لا بقاء لها ، ففيم انفاق الجهد والمال فى بناء الدور حياة لا تدوم ؟ خير من ذلك بناء قبر يقاوم الزمن لحفظ ذلك الجسد الى أن تعود اليه الروح ولو بعد ألوف السنين ... لذلك كانت أعتاب فرعون ، أو قصوره التى يقيم فيها للحكم أو للاستجمام من اللبن كسائر بيوت أهل النعمة من المصريين ، ولكن زخرفتها وزينتها ووسائل الراحة فيها كانت شيئا يفوق التصور فى بذخه وجماله ... وهو وأسفاه جمال وبذخ لم يكتب لهما الدوام ...

— كان اذن قصر « تى » الصيفى من اللبن أيضا ، على أبهته وروعته ؟..

— أجل .. ولم يدخر أبى وسعا فى توفير أسباب المتعة فيه . فقد شكت اليه أمى الملكة يوما من جفاف الهواء وسخونته ، فأمر أن تحفر بجانب القصر ، فى مهب الريح ، بركة هائلة طولها ٣٧٠٠ ذراع ، وعرضها ٧٠٠ ذراع فلا تضيق بسخونته وجفافه أمى الملكة الكبرى « تى » . ثم جعل على البركة زورقا مصفحا بالذهب الخالص ، ليذرع فيه البركة مع أمى فى هداة الأصيل ، ترويحاً عن النفس فى ذلك المحيط الطبيعى الرائع بجباله وصمته العميق ...

— ذلك كان منتجعكم للراحة فى أيام الشتاء ، اذا آدكم قصر طيبة .. وأين كان مصطافكم اذا هجر الصيف فى « منف » ؟

— فى قصر منف ، الذى بناه لأبى وزيره القائم على الجيش ، فافتن فى رفع عمدته وتزيين أسواره وأبوابه ، ليكون لائقاً بالقائد الأعلى لأعظم جيش فى الدنيا ...

— تلك هى « الجدران » .. فما خبر السكان ؟

— مئات من الحور العين ، من بنات الملوك والامراء فى الشمال

والجنوب ، ومئات من الخدم والعبيد ، فى أزياء بلادهم المتعددة
الالوان والطرز . وأما الاناث فكان آية فى دقة النقش ،
وجودة الأخشاب ، فلكل قاعة مقاعد من طراز خاص ، تلك
للأمراء ، وهذه للوزراء . . . فما أكثر تفنننا فى المقاعد
والأسرة ، منها ما يعد للاستقبال ، وما يعد للرحلة والقنص ،
وما يعد للراحة ، وما يخصص للطعام

زينة فرعون

— كل ذلك يا مولاتى تقدره ونتصوره ، ولكننى أشتاق
أن أرى يوما من أيام فرعون فى قصره ، بين النعمة والنعيم
— هو على هين . . فاتبعينى ، مغمضة العينين ، ولا
تسألينى الى أين ، ولا تفتحيهما حتى آمرك . .

وأغمضت عينى ، فلمستنى من جانبى رأسى بيديها ،
ووضعت ذراعها حول خصرتى ، فكأننى طرت فى الهواء ،
أو هبطت واديا مسحورا لا يحس له جرس ولا يسمع فيه
حس . ثم سمعت صوت نفير ، وقرع طبل كبير ، وصيحة
كصيحات الحراس ، ثم قالت لى الملكة :

— الآن افتحى عينيك ، واطمئنى فسوف لا يراك ولا
يرانى ولا يسمعنا أحد ، وان كنا نسمع ونرى ونفهم على
غربة اللغة . . .

— وما صوت النفير الذى سمعت ؟ . .

— نوبة الصباح فى قصر طيبة

وقلبت طرفى من حولى . . فاذا عمد رشيقة القد سامقة
الطول ، عليها نقوش وزخارف ، وصور صيد ، وفتح ،
وأسرى تقاد ، وفرعون على عرشه يتقبل منهم الولاء
والخشوع . . وبهو واسع الأرجاء ، عليه سقف تتوسطه
فتحة مربعة من فوقها عريشة تمنع هاجرة الشمس وتسمح
للنور بالنفاذ . . واستولت على الروعة مما أرى ، حتى

نبهتني نفرتيتي ، وفي صوتها غنة حنين ورقة للمعب الصبا :
- الآن صحا فرعون .. وهو في هذه الحجرة عن
اليسار ، يتزين ويرتدي ثيابه ويستعد للقاء الناس ، في يوم
من أيام فرعون الحافلة ..

وتبعتهما ، فاذا فرعون عليه قميص رقيق ، وقد حف به
نفر من كبار دولته ورجال حاشيته ، وقد انحنى على يديه
عامل يسوى أظافرهما ، وعلى قدميه عامل آخر يشذب
أظافرهما ، وعند رأسه حلاقه الخاص يحلق له رأسه فلا
يترك فيها نابتة من الشعر ، ويحلق له لحيته وشاربه . وهو
يجاذب رجاله ونفرا من حريمه أطراف حديث عن بريد
الشام وبلاد النوبة .. ثم وضعوا على جسده زيه الملكي

ولم يكن ذلك الزى أفخم وأبهى من زى الأمراء وقواد
الجيش فحسب ، بل كان مرعيا فيه ابراز ما للابس من مقام
لا يعدله مقام .. فلا يمكن أن يظهر فرعون للناس عارى
الرأس .. كلا ! بل يلبس شعرا مستعارا كذلك الذى
يلبسه قضاة انجلترا في هذا الزمان ...

- ألا يضيق الملك بهذا الشعر المستعار يا مولاتى ؟ .. ان
عزاه على كل حال أنه يخلعه عنه اذا خلا الى خاصته وآله

- على رسلك ! انى لم أر أبى عارى الرأس أبدا ، فذلك تبذل
لا يسمح به حتى أمام الأبناء .. أما اذا جاء وقت النوم
فتلك مسألة أخرى . انظرى .. هذا هو تاج النيل ، تاج
الشمال والجنوب يوضع على رأس أبى

ونظرت ، فاذا التاج المزدوج وقد علا رأس الملك ، وغطى
الشعر المستعار الذى كان يعلوه ، ولكن كانت تتدلى منه على
العارضين شعرات تصله بلحية طويلة مستعارة ، كلحى
الآلهة ...

- ألبس هذه اللحية دوما ؟

— كلا! .. انه لا يلبسها الا حين يرتدى التاج ، لعمل من أعمال « التشريفة » الكبرى .. أما فيما عدا ذلك فلا حية ولا تاج . انظري !.. لقد لبس فرعون ثوبه المعد للحفلات والمراسم ..

ونظرت فاذا ازار كثير الثنيات الرفيعة « بليسيه » تتوسطه منطقة ، عليها شعار فرعون في « خرطوشة » جميلة النقش ... وفي قدميه نعل خفيف مكشوف مجلى بالذهب

وكانما بدا على وجهي أنني كنت أنتظر شيئا خيرا من هذا ، فقالت نفرتيتي :

— صبرا ، ليس هذا هو أهم ما في زى مولانا .. هاك !.. وتطلعت ، فاذا حلى تخطف الأبصار بسننها وبديع صنعها ، أهم ما فيها قلادة فاخرة كثيرة الصفوف بعضها من لؤلؤ وبعضها من ذهب ، ولها فوق العنق من خلف قفل على هيئة رأس الصقر ، والصقر من آلهة المصريين المعبودة . وكان الصف الأخير من لآلىء القلادة يشبه الدموع في صفائه ورونقه وشكله العام ...

ولم أملك نفسي أن أهتف :

— ما أبدع هذه القلادة وما أروعها !..

فابتسمت نفرتيتي ابتسامة خفيفة ، وقالت :

— آه لو لبستها يا بنية ...

— أهذا ممكن ؟..

— تعالى ألبسك مثلها .. ففي خزانة فرعون عديد من

القلائد

وصحت دهشة ، فقد كانت القلادة ثقيلة جدا ...

فقلت :

— وى ! هذه والله نير ثقيل وليست قلادة ملك !

وابتسمت ابتسامتها الحزينة مرة أخرى ، وقالت :
— كذلك كل شيء يتصل بالملك ، ظاهره مرموق محسود ،
وباطنه يستحق الشفقة ، وتنوء به الكواهل الشداد . . ولكن
لا يشغلنك الحديث عن بقية المشهد ، فليست هذه القلادة
التي تزن بضع أقات كل ما سيسير به أبى المسكين من
أثقال !..

ونظرت ، فاذا فرعون وقد زادوا عنقه أثقالا بلوحة من
ذهب مصوغة على هيئة واجهة المعبد المقدس ، مدلاة على
صدره الملكى تحت القلادة بسلسلة ثقيلة مزدوجة ! ثم شدوا
كل ذراع من ذراعيه بأسورتين ضخمتين احدهما قرب
الكتف ، والأخرى عند المعصم . . وجعلوا عند كعبيه
أسورتين من طرازهما . .

وأخيرا ، وضعوا على منكبيه رداء طويلا من نسيج شفاف ،
قصير الكمين ، يضمه عند الوسط حزام آخر مرصع
بالشعار الملكى من أمام . . .

وبذلك تمت زينة فرعون . . .

فى قاعة العرش

وانتقل فرعون بعد ذلك الى قاعة عرشه الكبرى يحف به
الملا من رجال القصر والوزراء . . كلهم فى عنقه قلادة ،
يختلف طولها ومعدنها وكثرة أفرعها بحسب منزلته فى
الدولة . فقد كان اليوم مخصصا لاستقبال السفراء . . .

وجلس فرعون فوق عرشه الفاخر المصنوع من خشب
الأبنوس ، والمرصع بنقوش فاخرة مذهبة فيها حجارة
كرمية من الزمرد واللازورد . والعرش فوق منصة عالية
فى صدر القاعة الفسيحة السامقة العمدة ، التى تغلب عليها
البساطة النسبية ، لأنها أدعى الى الهيبة والاجلال

ومن وراء الملك حامل مروحته . . وهو أعلى رجال

الدولة مقاما ، فهو ليس مجرد حامل مروحة ! كلا ، بل هو أقرب الناس موقفا من فرعون ، وأدناهم الى أذنه بالمشورة والنجوى فى كل أمر ...

وقالت الملكة وهى تشير الى حامل المروحة :

— ألا تعرفين هذا الرجل السمح ؟

— أكاد أذكر اننى رأيت له صورة فى كتاب ...

— انه جدى ، والد أُمى الملكة تى .. صاحب المشورة والحظوة

وفى جانبى العرش ، على أرض الحجرة الحجرية ، وقف رجال الدولة كل عند رتبته ، مطأطين رؤوسهم ... والحراس والحجاب عند أكناف الباب . وجلس القرفصاء قرب درجات العرش جماعة من الكتاب فى أيديهم الألواح والأقلام لتسجيل أوامر فرعون الملكية ، وما يجرى أثناء الاستقبال من الأقوال

ودخل أولئك السفراء ووراءهم حملة التحف والهدايا . وكانوا خليطا من ممثلى ملوك سوريا والنهرين واقريطش ، فتطامنوا بين يدى فرعون . وقدموا هداياهم الثمينة ، وأعربوا عن مودة ملوكهم واجلالهم لعزيز مصر .. فقام الكتبة بتسجيل الهدايا واحصائها ، ثم أضيفت الى بيت مال الملك ، بعد أن حمل جانب منها الى خزائن الآلهة فى المعابد الكبرى

وبعد ذلك تكلم فرعون .. فأهدى الى كل سفير هدية أئمن من التى جاء بها ، ليحملها الى مولاه . وأهداه هدية أخرى لشخصه ، لكى يعلم الجميع أن فرعون كجبل الذهب الذى يفيض على جميع البلدان ..

ثم تملل فرعون فى مجلسه ، فكانت تلك آية ارفضاض الاجتماع ...

وخف فرعون الى جناحه الخاص ، لينضو عنه ثوب
التشريفة الثقيل ، وتاجيه الكبيرين ، وقلائده التى ينوء بها
جيده الملكى ...

ولى النعم

فقلت لنفرتيتى :

— هل انتهت مشاغل فرعون هذا النهار ؟ ..

— كلا ... فبعد قليل ستبدأ حفلة أخرى

— أيستقبل سفراء آخر ؟

— كلا ... بل يستقبل نفرا من رعاياه المبرزين ، من
عسكريين ومدنيين ، وفرعون من أهم صفاته لدى شعبه أنه
« ولى النعم » ، يجازى المحسن ويجزل له العطاء كرما منه ،
فهو يجمع الممتازين من رعاياه ، الفينة بعد الفينة ، لكى
يقدم لهم العطايا والانعامات ...

— أهى حفلة انعامات اذن ؟

— أجل ... والأصل فى هذه العادة أن فرعون كان يجزى
البواسل من جنده بالمال وقلائد الذهب اذا أظهروا شجاعة
وبأسا فى ميدان القتال تشجيعا لهم ولغيرهم .. ثم عمت
هذه البدعة ، فصارت تقليدا يتمتع به المدنيون أيضا . ذلك
أن المصرى بطبعه محب للسلم ، مقدر للخدمات التى تقدم
أثناء السلام لحدمة الدولة والحضارة . فليست الحروب الا
ضرورة لصيانة السلام ، فهو مقدم عليها فى العناية والقدر
— ولماذا لاينعم فرعون على هؤلاء فرادى ، دون أن يكلف
نفسه مشقة حفل رسمى ؟ ..

— لأن الحفل أبهج للمنعم عليهم ، وأكثر تنويها بذكرهم ،
وأفعل فى حفز النفوس الى مجاراتهم والاقتداء بهم ..
ثم قادتني نفرتيتى الى خارج القصر ، فاذا ساحة كبرى

يحف بها بستان ، واذا المنعم عليهم يقدمون وقوفا في عرباتهم يقودونها بأنفسهم ، فالعربات في ذلك العهد لها عجلتان فقط ، ويقف فيها صاحبها وييده عنان الجواد . . فليس لعربة أحد جوادان ، خلا فرعون نفسه . . فصفت تلك العربات في الرحبة ، وأعنتها بأيدي السياس ، الذين كانوا يتبادلون الاحاديث فيما بينهم ، وقد يجاذبون أطراف الكلام حراس القصر في غير كلفة ، ابتهاجا بذلك اليوم الميمون ، وكل سائس يطرى مناقب مولاه ويعدد مزاياه . . وكنت أشعر بغبطة غريبة وأنا أتجول بين هؤلاء الناس فأراهم وأسمعهم دون أن يروني ويسمعوني . . . حين نبهتني من هذا الشعور نفرتيتي قائلة :

— انظرى نحو هذه الشرفة . . فحين يلتئم الجمع ، وتحين ساعة الحفل ، سيظهر أبى فرعون فى هذه الشرفة التى تفضى اليها قاعة ضخمة ذات عمد ، فيها موائد ونضد وصناديق ذات عدد ، صفت عليها أو فيها هدايا فرعون التى سينعم بها على رعاياه المحسنين . . . ورجال الحاشية يحفون بها ، كى يقدموا لفرعون هدية كل واحد منهم متى جاء دوره . . . ورأيت تحت الشرفة القليلة الارتفاع رحبة نظيفة فيها أصص الزهر ، محوطة بسياج جميل ، ورجال التشريفات والأمناء يتولون تنظيم المنعم عليهم صفوفًا بحسب الدور والأسبقية فى « البروتوكول »

وأخيرا ظهر فرعون فى الشرفة الملكية ، والى جواره الملكة تى ، ومن خلفهما والدها حامل المروحة الملكية وكبير مستشارى الملك فى آن واحد . . . فخر الجمع ساجدين ، ثم تقدم أولهم فحيا الملك بذراعيه متقاطعين فوق صدره ، ودعا للملك وعدد مناقبه، فرد عليه فرعون مثنيا على اخلاصه للعرش وحسن بلائه فى خدمته . . ثم ذكر المنصب الذى رفعه اليه جزاء ذلك الاخلاص ، وناول هديته المنعم بها

عليه ، فأسرع رجال القصر بوضعها حول رقبتة ، لأنها قلادة كريمة تقوم مقام الرتب والنياشين عندنا . . . وقد تتعدد القلادات في المرة الواحدة ، فيبلغ عددها ثلاثا أو أربعا من الذهب الخالص ، ثم يلقي اليه فرعون بهدايا أخرى من الذهب ، قوامها كتوس من خالص النضار . . . ويصرف له جانب كبير من الاطعمة الملكية والنبيلد الملكي ، يحمله من خلفه أتباعه وهو منصرف من الباب بين تحايا الموظفين والحراس والسياس ، فيستقل عربته الى داره ، يحف به أصدقائه وأولياؤه ، الذين يزيدهم كلما تقدم في المسير ، حتى يضحى موكبه مظاهرة صاخبة عند وصوله الى الدار . فتستقبله امرأته وجواريه بالزغاريد ، وتقام مأدبة حافلة في تلك الليلة السعيدة . . .

ويتوالى في القصر تقديم الانعامات من ولى النعم ، حتى ينتهى الحفل ، وقد عم السرور كل انسان . . . وسجل الكتبة في سجلات القصر تلك الانعامات مفصلة في اسهاب

التابع والمتبوع

سيد العالم

وانصرفنا من ذلك الحفل الحافل ، فاتخذنا مجلسا تحت صفصافة على الشاطيء من حديقة قصر « سيد العالم » . . ولمحت على وجه نفرتيتى شيئا من الزهو بهذا الذى شهدنا ، فقلت كى أحفزها على الكلام :

— لقد آثرتنى مولاتى بشرف صحبتها الى زمانها ، فمالى أراها بمعزل عنى فى خلجات الشعور وسوانح التفكير ؟

— حاش !.. ولكنه شيء من الزهو وشيء من الحسرة

— أحسرة على ما فات ؟..

— بل حسرة لما فات ، وعلى ما جد فى أعقابه من الآفات .
ففى ذلك الزمان الذى نشهده الآن ، كان فرعون سيد العالم وأعظم بنى الانسان ، وكانت مصر قصبه الدنيا وقبلة البلدان . . سيادتها على ضفتى الوادى لا يجتزىء منها مجتزىء ، ولا يجترىء عليها مجترىء . . فالسودان ومصر شيء واحد وعزوة وثقى ، بل لقد حدث أن تقلص سلطان مصر عن شمال الوادى ، فكان فى جنوبه أعز وأبقى . . أما اليوم يا بنيته . . .

— واخزيه !.. ولا حول ولا قوة الا بالله !

— وبكم يا فتاة !.. لو صدقت النية وصح العزم !

— ولكن الناس فى زمانكم لم تكن بهم حاجة الى مناورات السياسة ومؤامرات الدس وتبادل المنافع . . .

— على رسلك ! فان الانسان هو الانسان من أقدم الازمان . . والسياسة هى السياسة ما قامت الدول وثار المطامع

وسكتت الملكة لحظة ، وسرحت ببصرها على أمواج النيل
هنيهة ثم استطردت تقول :

— لقد كان فرعون يلبس لبلاد آسيا لبوسا يختلف باختلاف
الاحوال : فهو أنا أب بر ، وأنا آخر في جلد نمر .. فأمرأ
البلاد المفتوحة يزاولون سلطانهم فيها تحت رقابة الولاة
المصريين ..

— ولماذا لا يمارس الحكام المصريون ادارة تلك البلاد مباشرة ،
ليس هذا أليق بالسلطان وأؤكد له ؟.

— هذا أول ما يخطر على البال ، وهو أسهل الحلول
وأرضاها للغرور . والحصيف الحصيف من ينظر بعين الحذر
الى مثل هذا الحل السهل وما ينطوى عليه من غواية
واغراء ...

— تقريع عنيف ، ففيم هو يا مولاتى ؟

— ان الامم العريقة فى السياسة ، ومنها دولكم المعاصرة
ذات الامبراطوريات ، تميل دائما الى حكم البلاد المغلوبة بقوم
من أبناء هذه البلاد ، ولا تستبقى الاسلطة الاشراف والتوجيه .
وتلك خطة أريية تنبى عن ذكاء : لانها لا تفوت على الغالبين
شيئا من منافعهم فى تجارة أو نفوذ ، وتنفعهم فى تحويل
الحقد على الاحكام الجائرة الى قوم من أبناء البلاد . وتنفعهم
كذلك فى اجتذاب عدد من وجوه تلك البلاد يتزلفون اليهم
بغية الظفر بالمنصب يوما ما ، فتدور السياسة فى ذلك البلد
المغلوب حول مرضاة المحتلين ، ولا تتألف جميع القلوب على
دفعهم والخلاص منهم حين يحكمون حكما مباشرا ...

— هذه والله أحدث الآراء فى الاستعمار ...

— وهى كما ترين ليست حديثة ، الا اذا اعتبرت فرعون
مصر من الحديثين ، ولكنه غرور أبناء الزمان الاخير يخيّل

اليهم أنهم يزوا الاولين ، وهم عالة عليهم في كل أمر . . تلك كانت حال الادارة في المستعمرات ، تصدر الاوامر العليا من رئيس الوزراء ، ويتلقاها الولاة فيلقنونها الامراء من الاهلين ، وهؤلاء يقدمون لمصر ماطلبت متصدين له كمخلب القط الذي يخرج الكستناء لصاحبه من النار . . .

جنوب الوادى

— تلك يا مولاتى مستعمرات مصر في آسيا ، فكيف كان حكم مصر لشطر الوادى الجنوبى على عهد فرعون ؟ . .

— حكم أخ كريم لأخ كريم ، على اعزاز منه وتعظيم . . . « فعنينة » حاضرة المركز المعروف باسمها الآن ، كانت عاصمة المملكة المصرية الجنوبية ، التى تمتد حتى « نباتا » عند الشلال الرابع . . .

— ما أبعد هذا البلد من طيبة عاصمة فرعون !
— انها الف ونصف ألف من الكيلومترات — مقياسكم الحديث — فكان « نائب الملك » يحكم ذلك الشطر الجنوبى من الوادى فى عاصمته عنينة ، باسم فرعون . . . ولا غرابة ! فان وحدة الشطرين أمر معروف من حيث الجنس والحضارة فى فجر التاريخ ، قبل أن تقوم الدولة قيامها على يد « مينا » . ثم فرق الدهر بين الشطرين دهرا ، خطى فيه الشمال نحو الحضارة قدما ، وحالت حوائل دون ذلك التقدم فى الجنوب ، الى أن عادت مصر تبحث عن « نصفها الغائب » ، حتى قيض الله لهما الوحدة على يد تحتمس الاول . فأنشأ وظيفة « حاكم الجنوب » ولقبه بأمر كوش ، ومتعه باستقلال مذكور فى التدبير والادارة . . .

— وكيف كان يعين ذلك الحاكم العظيم ؟
— من أهل الجنوب . . يختاره فرعون ، ويكرمه بألوان من التقريب والمجاملة لا يظفر بها أى حاكم من حكام فرعون ،

أظهارا لمكانة الجنوب الممتازة . فيحتفل بتنصيبه في أكرم
ساحة ، هي ساحة آمون كبير الارباب . . فهناك يمثل فرعون
بجلال قدره ، ويقدم لنائبه في الجنوب « خاتم السلطان » ،
تشبها بخاتم فرعون نفسه ، ولا عجب ! فسلطانه يمتد من
شمال أسوان الى الشلال الرابع

— والى أى حد كان يمتد سلطانه في مرافق الدولة ؟

— الى كل شىء يخطر بالبال . . فهو قائد الجيش هناك
يدفع البدو عن حدوده ، ويمد فرعون بفرق الجنوب في
جيش منف . واليه يوكل اختيار المواقع للحصون ، واقامة
القللاع ، وتشبيد المعابد ، والقيام على الرى والصرف ، وفي
يده ميزان العدل والقضاء ، وسلطة الضبط والربط ، وجباية
الخراج واستغلال المناجم والمحاجر والغابات . . واليه تدبير
التجارة العظيمة على وجه النيل هابطة الى شمال الوادى

— تلك والله سلطات واسعة . . ولكن أخشى أن تكون جل
أهدافها خدمة الشمال لا رفاة الجنوب

— لا وأبيك ! . . فقد كان قومنا أعقل من التورط في مثل
ذلك الخطأ الفادح ، فأول واجبات الحاكم العمل على ازدهار
الزراعة والصناعة . فكان في قصره نفر من أمهر الصناع
المصريين يقومون على تدريب أهل الجنوب أصول الصناعة
والفن ، فما من شك أن مستوى الحياة قد ارتفع كثيرا على
يد المصريين في الجنوب ، وانه قد خطا بفضل معونة الشمال
والاتحاد معه خطوات جبارة في ركب الحضارة الذى سبقت
اليه مصر ألوفاء من السنين قبل ذلك . . . وقد عرف الثقة
أن أمور الرى على الخصوص كانت موضع عناية فائقة في
السودان أيام ذلك العهد الذهبى . وخير برهان على رفاة
السودان ورضاه عن ذلك الاتحاد مع مصر ، انه اصطبغ
بصبغة مصرية خالصة في سرعة عجيبة ، فعبد آلهة المصريين ،
وتمصرت أقاليمه كل التمصير . . . ولا يكون ذلك لو أن مصر

حكمت السودان حكم غلبة واستغلال ، لا حكم أخوة ووحدة
لا فرق فيها بين جنوب وشمال ...

الفطرة والتكلف

— أجل يا بنية .. ان وحدة الشمال والجنوب فطرة الله ،
لا اصطناع بنى الانسان ، وما جمعه الله لا يفرقه الانسان ...
— ولكن ها هم يفرقونه في هذا الزمان !

— لا تصدق ! فهم يخدعون أنفسهم حين يتوهمون أنهم
يستطيعون لما فطر الله خلافا . فلا تحزنوا ، اذ لا بد من التئام
الجرح وتمام الوحدة عن قريب .. لانها فطرة طبيعية ببرهان
عملى من امبراطورية ابي فرعون ..

— وما ذلك البرهان يا مولاتى ؟

— ان مصر فتحت الجنوب ، وفتحت كذلك ملكا شاسعا
في اقاليم آسيا ، من فلسطين وفينيقيا الى وادى الفراتين في
اقصى الشمال ... فاصطبغ الجنوب بصبغة مصرية خالصة ،
ولم يصطبغ ملكها في الشرق بتلك الصبغة .. لماذا ؟ جواب
واحد يصح في الازهان ، هو ان الجنوب من طينة الشمال ،
اما ذلك الشرق فليس من طينة مصر ، فكان ملكها فيه الى
زوال ... وظلت دائما قلقة بسبب هذه الاقاليم الاسيوية
التي تنكأ جروحها في الحين بعد الحين بثورة دامية تريد بها
التخلص من حكم مصر ...

— ان هذا لمزعج !

— أجل ! .. ومن أجل ذلك اكتفى فرعون أبى من أمراء تلك
البلاد بالطاعة والجزية والاعتراف بتاج فرعون ، وتسهيل
مهمة جيوشه اذا عبرت بلادهم للقاء عدو أو دفع غارة ...
ولكن ...

وسكتت نفرتيتى عند « لكن » هذه ... فنظرت اليها
مستفسرة ، فقالت فى أسف :

— ولكن هذا الشرق كان في زماننا صورة مما هو عليه في هذا الزمان الاخير . . تيارات من النفوذ والدسائس الخفية والتنابد ، تفرق بين اماراته أمم الحِيثين والميتانى التى تتاخمها ، حتى كان بأسهم بينهم شديدا . . .

— انها سياسة « فرق تسد » التى تعيش عليها بعض الدول الكبيرة في هذا العصر الحاضر . . فلماذا لم ينتهجها فرعون . . ؟

— ماذا تقولين؟ . . وهل يليق بالاسود فعل الثعالب وبنات آوى؟! صه! لا تبرر الغاية الوسيلة الا عند الاوشاب ونفايات الخلق! وفرعون عزيز مصر . . وهو لا يريد لدول الشرق الا العزة بالاجتماع والتضافر ، فكيف ينشد العزة من هذا الباب الدليل . . باب الوقیعة والتفريق . . .

صفار الاحلاف

— وماذا كان مستطیعا أن يصنع اذن ؟

— لقد استطاع وصنع فعلا . . استطاع أن يجمع هؤلاء الامراء المتنابذين في حلف مع مصر ، ليكونوا أقدر على دفع العدوان ، وبحيث يخف فرعون الى خدمتهم متى أغار عليهم عدو شديد البأس . . .

— ولكن . . .

وسكت أنا في هذه المرة بعد « لكن » لا أفصح عما بعدها ، فقالت نفرتيتى :

— ولكن ماذا ؟

— ولكن عهدنا بهذه الدول ، لا تحفظ عهدا ولا تقيم على ولاء ، ولا تسكت عن الدس والمناورة ، ولو في غير مصلحتها المشتركة . . .

— هذا صحيح! . . وكذلك كانوا . . .

— فكيف اذن ، وقد عف فرعون الاسد عن سياسة فرق
تسد ، تسنى له أن يحفظ ذلك الحلف من الانهيار ؟ ..

— بفعل الاسود وسطوتهم .. فقد كان يرقب أولئك الامراء
مراقبة حذرة ، حتى اذا جاءه عنهم ما يريب في ولائهم ،
أحضرهم جميعا الى قصره في طيبة ، وتولى محاكمتهم
بنفسه ، فاذا ثبتت براءتهم كان خيرا ، واذا أخفقوا عاقبهم
وذويهم بالبقاء في مصر لا يعودون الى بلادهم أبدا . . . وربما
وصل العقاب الى حد القتل على الخيانة الثابتة ! فهولين في
غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وابوة للشعوب والدول
لا للامراء المهدرين مصالح أممهم . . .

فقلت معجبة :

— نعمت السياسة يامولاتى . . وانها وايم الحق لسياسة
أسد عرين لا يخاتل ولا يستكين ، ولكنه لا يذل الكرامة ولا
يستهن بشعور المغلوبين . .

— ذلك صحيح . . ولكن أياك أن تظنى بفرعون مصر الاقفار
من السياسة ذات الحدين ، التى تنطوى على البر ودفع
الضرر والحذر فى آن واحد . .
— وما ذاك ؟ ..

— ذلك انه كان يدعو أبناء أولئك الامراء الذين يعرف أن
ولاءهم مشوب بالزغل ، لكى يتربوا فى بلاطه مع خاصة أبناء
فرعون ، فيكونوا ضباطا فى حرسه ، و « ياورانا » فى
تشريفاته . . . وينشأوا على الثقافة المصرية ، فيشربوا الميل
الى مصر ، ليكونوا عند تولى الامارة فى بلادهم معها لا عليها
بقلوبهم وسرائرهم . . . وهم فى الوقت نفسه « رهائن » ،
اذا لم يبق أبائهم على العهد ، كانوا ضحية الخيانة
والغدر . . .

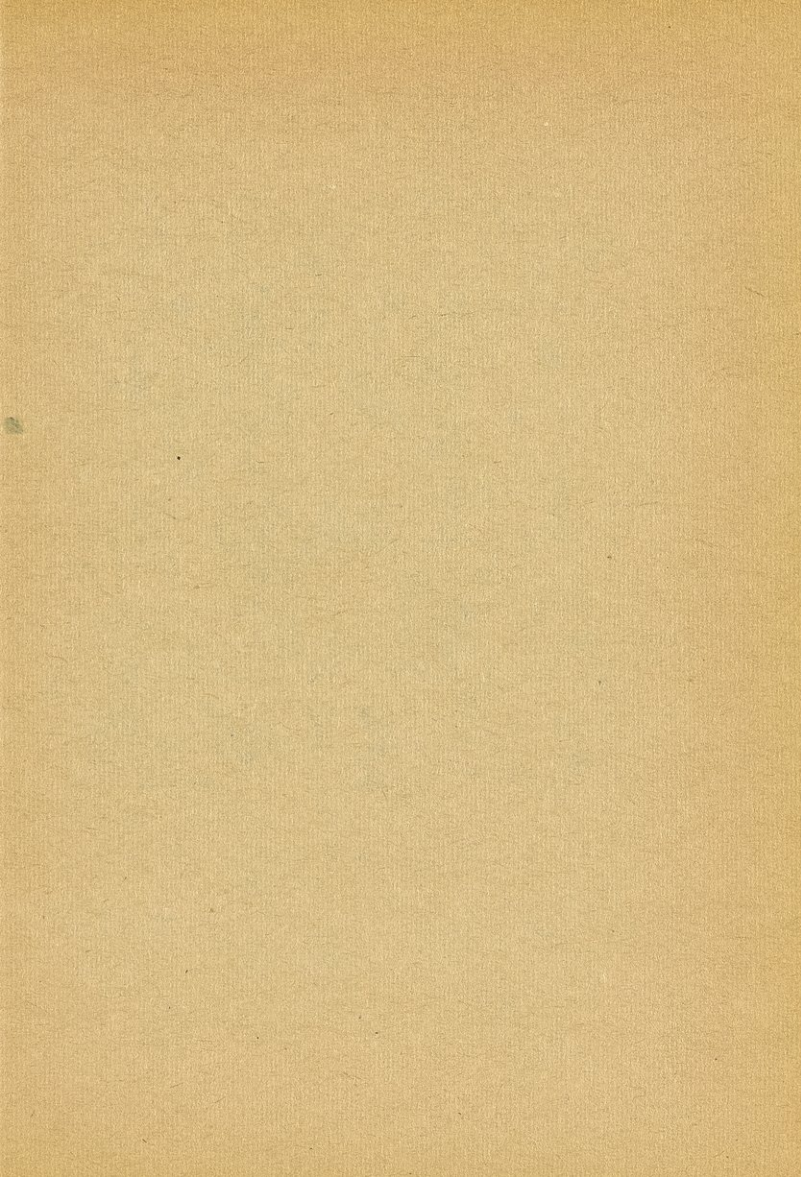
— انهاصابة عصفورين بحجر واحد .. وهى بعينها
سياسة روما بعد ذلك مع أمراء ذلك الشرق ، وهى أيضا
سياسة هذه الدول المستعمرة فى الزمن الحديث ، حين تحاول
نشر ثقافتها فى البلاد المغلوبة ، وتشجع بعوث أبناء الخاصة
الى جامعات بلادها ، وان كان زمان الرهائن قد مضى
وانقضى ...

— أرايت ؟ كل أولئك « أطفال » فى السياسة بالقياس الى
مصر الفراعنة يا بنية ...
فأجبتها :

— آمنت بالله يامولاتى ، انكم أساتذة السياسة الاولون ..
فقالت :

— وغاب عنك شيء .. غاب عنك أننا شرعنا سياسة
« المؤلفة قلوبهم » كما شرعنا سياسة الرهائن ... فكان
الامراء الفقراء يتلقون الاعانات من فرعون مصر ، سيد العالم ،
لكى يستعينوا بها على حفظ مظهر الامارة ، فيكون ذلك ثمنا
لضمان ولائهم ، وعدم ميلهم مع عدو فرعون وقت يجد الجد ،
وأولاء تربطهم بمصر بطونهم ، اذا لم تربطهم بها قلوبهم
وعقولهم . وكثيرا ما تكون بطن ابن آدم — بينى وبينك — هى
الطريق السلطانى الى قلبه ! .. وقد قيل فى الامثال « اطعم
الغم تستح العين » وكان ينبغى أن يقال كذلك : « اطعم البطن
ينقد لك القلب »

— مولاتى ! ما أشبه الليلة بالبارحة ...



آية الله

أول الغيث

قالت الملكة الحسنة بعد اطراقة تفكير ، هزت بعدها رأسها الجميل الذى يعلوه تاجها الفريد :

— انى لأعجب من عجب صنع الله ! كل يوم هو فى شأن !

— سبحان الله وتعالى ! وماذا عجبت من صنعه ، وكل صنعه عجب ! ..

— ذلك الملك الشاسع الذى امتد من طيبة شمالا ألفا وثمانمائة من الكيلو مترات ، وجنوبا الى نباتا ألفا ونصف ألف من الكيلومترات . . . وتلك الكنوز وذلك الجاه ، والسيادة سيادة لا يكاد يشركه فيها أحد على أرض الله . . . ما خطبها ؟

— ماذا أخرجها من طوايا الغيب ، وجعلها — بعد ان لم تكن — ملء السمع والبصر ؟
— هو الله ..

— أجل ، ولكنه يجعل لكل شىء سببا ، أليس كذلك ؟
— بلى ! ولكن ليس فى هذا للعجب موضع فى كثير أو قليل ، فأى عجب فى أن تكون للنتائج مقدماتها وللأحداث أسبابها ؟

— ليس لهذا عجبت من الامر ، فالسببية لا تثير عجب السواد ، وان عجبت لها عقول كبار فى تاريخ هؤلاء الناس .
وانما يعجب الناس من سبب لا يرونه من معدن نتيجته .
فاذا خرج الشبل من ظهر الأسد لم يعجب لذلك أحد ، أما

إذا خرج الشبل من ظهر الحصان أو الجمل، فذلك هو العجب العجيب في باب النتائج والاسباب ..

— صدقت مولاتي ! ولكن أين الحصان وأين الشبل ، في هذا الملك الذي لم يظفر به أحد من قبل ؟

— ان هذا الملك ، أو تلك الامبراطورية الفرعونية لم تقم عن رغبة في الفتح بسبب ضيق وادى النيل وعجزه عن كفاية أهله حاجات المعاش الرغيد . كلا ! بل غزيت مصر قبل ذاك .. غزاها قوم من الرعاة ، عرفوا بالهكسوس ، فاستقروا في دلتا ذلك النيل ، وكادوا يبقون فيها الى الابد، لولا أن صح عزم الكرام من أمراء طيبة في صعيد مصر الحر على طردهم، فتلقفوا الراية كابرا مقداما من بعد كابر مقدم ، حتى طردوا من مصر أولئك الرعاة الغزاة .. فكانت آية الله ! وسكتت الملكة حيناً ، كأنها تفكر وتستعيد ، فاحترمت صمتها الى أن خرجت منه وعلى فمها ابتسامة الراضى بما استعاد من الذكرى

الآية الاولى

فقلت للملكة أستحثها على الكلام :

— أضحك الله سنك يا مولاتي ! ..

— انها حقا آية الله التي انطوت في ذلك الغزو الهكسوسى الذى ثقل على مصر حيناً ، حتى نفضته عنها كما ينفض الجواد التراب عن معرفته ...

— تشبيه جميل .. فالجواد حيوان رشيق الحركة نبيل، حتى وهو ينفض التراب ...

— يا بنية ! لم أستعمل الجواد في ذلك التشبيه عبثاً ، فقد كان أهم عنصر استخدمه الله لاتمام آيته في تلك الغزوة، وفي حرب الاستقلال ، ثم فى فتح الشرق الى وادى النهرين الأعلى من بعد ذلك ...

— وكيف كان ذلك ؟ ٠٠

— لم تكن مصر تعرف قبل غزوة الهكسوس ذلك الحيوان المعروف باسم الحصان ، ولا عجلة الحرب التى يجرها ذلك الحيوان ، الى أن غلب بهما الرعاة مصر على أمرها فملكوا وجهها البحرى حيناً من الدهر ٠٠ ولكن ذلك الغزو كان تافه الأهمية وان بدا هائلاً مروعاً ، بالقياس الى شىء لم تظهر له أول الأمر أى أهمية اطلاقاً ، ألا وهو دخول الجواد أرض مصر ، وسرعة تأقلمه فيها ، وكثرة نسله وانتشاره فى ربوعها شمالاً وجنوباً ، حتى بات الحيوان الأساسى فى وادى النيل ، بعد أن كان الحمار هو ذلك الحيوان ٠٠ وتعلم المصريون صناعة العربات أيضاً

— ما أفطنهم أن يتعلموا سر عدوهم ويحذقوه ، فانه لا يفل الحديد الا الحديد ! ٠٠

— لا تحسبيهم تعلموا صناعة العربات قصداً ، بل بتلك الفطرة التى ركبها الله فى الفلاح المصرى أن « يلتقط » كل صنعة بسرعة هائلة ٠٠٠

— صدقت مولاتى ! فهؤلاء فلاحونا الأُميون يتعلمون بمجرد المشاهدة ادارة آلات الرى البخارية ، وطرق اصلاحها ، بلا تعليم منظم خاص ٠٠٠ وأما سرعة إتقان جنودنا الاميين لدقائق الآلات الهندسية مثل الرادار ، فحديث سار كل مسار ، وعجب منه كل انسان ٠٠٠

— لقد شاء الله اذن أن يكون الضرر الاكبر ، وهو غزو البلاد على يد الرعاة ، سبباً فى دخول الجواد أرض مصر الى الأبد وفى تعلم المصريين صنع عجلة الحرب ٠٠ حتى اذا قامت قومتهم للاستقلال ، فل الحديد الحديد ، وطرد الهكسوس على يد أمراء الصعيد ، فكانت هى النافعة الأولى من تلك الضارة الكبرى ٠٠٠

— صدقت مولاتى ! ما أعجب صنع الله ٠٠٠ ولو اطلعتم

على الغيب لا أثرتم الواقع ! ولكن أين هذا مولاتى من حديث
الامبراطورية ؟ ..

— انه قريب من قريب .. فبعد أن تم طرد الهكسوس ،
تعقبهم ملوك مصر الجدد حتى يبعدوهم عن تخوم مصر ...
فوجدوا فلسطين أرضا مفتوحة لا خيل فيها ولا رجل على
وجه التقريب ، فتوغل جيش مصر على ساحل فينيقيا
« لبنان » متعقبين عدوهم العتيد ، حتى تم لهم طردهم بعيدا
وراء تلك الربوع ... وبذلك نبئت عند فرعون فكرة « تأمين
حدود مصر » ، لأن سيناء وفلسطين ليستا حدودا حصينة
بطبيعتها ، فوجب الاستيلاء عليها حتى تؤمن حدود مصر
نفسها . فأول فتح فى الشرق كان لغرض دفاعى بعد تلك
الغزوة .. ولكنه لم يقف عند هذا ! فقد لمس فرعون تفكك
امارات ذلك الشرق وتنازها وسهولة وقوعها فريسة لغاز
آخر يخلف الهكسوس فى الاطماع والبأس ، فقرر فرعون
أن ييسط ظله على تلك الامارات ، ويتوسع فى ذلك حتى
يكون له ملك عسكري واسع يحمى ظهر مصر ، ويفتح عليها
ينابيع الرزق ... فتعاقبت أجيال من فراعنة غزة ، أقاموا
تلك الامبراطورية العظيمة التى بدأت مطاردة للعدو ، ثم
تطورت الى تأمين من الغزو ... ثم استمرأ الفراعنة الفتح
وطعمه الحلو ، وما فى الملك العريض من أبهة وزهو ...

صفحة بيضاء

فقلت مستدركة ، أو معقبة :

— ولكن السيف كما يقولون يا مولاتى ذو حدين ، فهو
اذ ينزف دم العدو وينبت أكاليل الغار فيعقدها على رأس
المنتصر ، يستنزف أيضا دم الأمة وأرزاقها ...
فأجابت الملكة وهى تبتسم ابتسامة الكبار حين يردون
على ذلاقة صغارهم :

- ذلك صحيح ، وهو ككل صحيح يتفاوت في صوابه ،
فليس كل حكم صحيحا « مائة في المائة » . وهذا الرأي
الذى ذكرته نفسه ليست صحته تامة كاملة
- وكيف كان ذلك ؟

- ان فتح تلك البلاد لم يستنزف من دم مصر شيئا كثيرا
كما تتوهمين ، لان القوى لم تكن متكافئة ، ولان عبقرية
تحتمس الثالث على الخصوص حققت الدماء وأدنت ثمار النصر
بغير ثمن فادح

- والمال مولاتي ؟ المال عصب الحياة ؟ .. هل تتكلف
الحملات الحربية الشئ القليل فى نفقات التسليح، والتحصين،
والنقل ، والمؤن ، والامداد ؟

- بل تتكلف كثيرا . . . ولكن هذا عاد بالخير على ذلك
البلد الأمين
- وكيف كان ذلك ؟

- ان انشاء جيش كبير دائم ، للفتح وتأمين ثغور
الامبراطورية المترامية كان سببا فى قيام نهضة صناعية
كبيرة ، لصنع آلات الحرب والحصار والنقل ، وللتموين
والعمارة اللازمة لاقامة الحصون . فازدهرت صناعة التعدين
واستغلال المناجم والمحاجر ، وقامت المصانع فى بقاع من
الوادى مختلفة ، تصب منتجاتها فى « منف » عاصمة الجيش
المصرى . . . واستتبع ذلك النشاط الصناعى انتعاشا فى
الحياة الاقتصادية وارتفاعا فى مستوى الحياة ، زاد بعد الفتح
بما تدفق على مصر من موارد البلاد المفتوحة واثاوتها . . .
- انها لعمري صفحة بيضاء . . .

- ولكنها ليست وحدها فى ذلك البياض . . . فهناك
ما هو مثل ذلك أهمية وفضلا على الحياة المصرية والحضارة
المصرية . . . هناك صفحة جديدة حقا فى تاريخها

— وما ذاك ؟ يرحم الله مولاتى !

— هذه البلاد التى فتحها فرعون ، من غزة الى أقصى جبل الكرمل من لبنان ، كان سبيل الوصول اليها والعودة منها هو السفن على متن البحر . وبذلك صار لمصر أسطول ، وصارت مصر سيده البحار فى ذلك الزمان . . .

— الله أكبر !

— وصارت الفلك تنقل الجنود والعتاد ، وتعود بالخيرات من آفاق تلك البلاد ، يعمل عليها تجار من الفينيقيين بشعرهم الطويل المرسل وزيتهم الملون الغريب . . . أما البحارة فمن أهل فينيقيا أيضا ، ولكنهم ليسوا كخاصة القوم ، بل ان شعورهم وثيابهم قصيرة ، لانه لا فراغ لديهم للاناقة والتجمل . . .

وما ذاق المصريون لذة الفتح حتى أوغلوا فى الارض ، وما ذاقوا لذة التجارة على متن البحر حتى أوغلوا بالأسطول متاجرين فى غير سواحل الامبراطورية ، فهذه « قبرص » تتصل الاسباب بينها وبين مصر ، فيحمل الأسطول المصرى الى وادى النيل زيتها وفضتها ونحاسها . وهذه اقريطش « كريت » يحمل منها الأسطول المصرى أيضا صناعاتها وخيراتها ، ويحمل اليها خيرات مصر . . . واذ نشطت تجارة البحر ، نشطت موانئ التجارة ومراسى السفن ، وسادت البلاد موجات من الرخاء ، وعرفت ألوانا من الاستهلاك لم تكن تعرفها من قبل . . . استهلكا غذائيا وصناعيا . . . وثقافيا أيضا ، فقد اتصلت التجارة بين مصر واليونان . .

فى أعقاب السيف

فقلت مؤمنة :

— أجل مولاتى ! لقد عودنا التاريخ أن تسير فى أعقاب الجيش الفاتح موجات مختلفة ، بعضها من الاوبئة والطواعين

- والعياذ بالله - وبعضها من الحضارة التي تتبادلها الأمم غالبية ومغلوبة ، وبعضها من الثقافة والتزاوج ، فيكون من ذلك كله خير عميم ، لمستوى النسل ، وتقدم الحضارات ، وانتشار الثقافات والآداب ... كذلك كان من فتوح « ذى القرنين » فى الشرق كله ...

فقاطعتنى الملكة فى شىء من الحدة :

- ومن ذو القرنين؟ قبله وقبل قرنيه بقرون ، كان آبائى الميامين ! لقد صنع فتحهم للشرق الأعاجيب ، فانتشرت الثقافة المصرية ، والحضارة المصرية فى كل مكان ، وصارت مصر بعاصمة ملكها طيبة ، وعاصمة جيشها منف ، جامعة يتلقن فيها أبناء العليّة من تلك الأمم أعظم ثقافة وأعرق حضارة فى العالم ... فخطت تلك البلاد خطوات جبارة فى ركب التمدن والحضارة بفضل الفتح المصرى . فلم تكن مصر وحدها هى المنتفعة من هذا الفتح المبين ، بل لعل انتفاع الأمم المفتوحة كان لا يقل عن انتفاع مصر بحال من الاحوال .. لانها تاجرت مع مصر كما تاجرت مصر معها ، ولم يكن حال مصر كحال الأمم المستعمرة فى الوقت الحاضر وسكنت الملكة ، كأنها اعتقدت انى فهمت ما ترمى اليه بذلك التلميح ، فلا حاجة الى بيان صريح .. فاستزدتها ، فقالت :

- ان الدول المستعمرة فى العصر الاخير تحاول اغراق البلاد المفتوحة بصناعاتها ومتاجرها ، ولا تأخذ منها مثل ما تعطيها من المنفعة .. فثمت حواجز جمركية ، وقيود العملة ، وما الى ذلك مما يعين على الاستغلال ، ويوقف تقدم البلاد المحتلة . أما مصرنا يا بنية فلم تعرف الحرية التجارة ، فأفادت كما استفادت ، وحمدت الشعوب المفتوحة لمصر هذا البر وذلك الرخاء الذى أفاءته عليها ...

- ولكن أمراء تلك البلاد حريون أن يحنقوا ...

— ومن أمراء تلك البلاد ؟ لقد كانوا شيوخ قبيل متنابد
تفرقه الاطماع ودسائس الأمم الكبيرة المجاورة كأمة الحيثيين
والميتاني . فوحد فرعون بينهم ، وعلمهم الحرب الحديثة ،
وجعلهم جبهة واحدة ، لا يسهل ازدرادها على العدو المتربص
.. وقد كتب أولئك الأمراء بعد موت تحتمس الثالث في
أكثر من مناسبة ، مشيدين بفضلهم من هذه الجبهة .
فمصر القديمة هي أول من أقام حلف الشرق الأوسط ، أو
جامعة الامم العربية بمعنى أصح ...

فقلت :

— ما أسعد فرعون أبيك بهذا الملك وهذا الفضل الموروث
— أجل يا بنية !.. لقد ورث امبراطورية مستقرة مشيدة
الاركان عالية الصرح . فقدر ان السلام والامن هما أعظم
النعم الانسانية ، فبدأ يستمتع بما يفىء عليه وعلى مصر ذلك
الملك العريض المستقر ، فكان هذا الترف الذى لم يشهد
العالم القديم له نظيرا ، والذى يشبه بذخ لويس الرابع
عشر فى زمانكم الحديث فى دولة الفرنجة .. فن وترف
ونعيم مقيم . ولكن الترف كالدم السم الكثير ، له مضاعفات
تتعب المعدة والكبد والامعاء . فسم الدم من معدن الدم
وليس دخيلا عليه .. واذا أصبح المرء أسيرا لترف لا يتحرر
منه بل يستمرئه ، تهاوى الى الانحلال ، اذا لم يكن فى الحال ،
فبعد حين .. سنة الله فى خلقه ...
— ولن تجد لسنة الله تبديلا ...

على مائدة الأجداد

حقوق البطون

ومالت الشمس الى الغروب ونحن نتجاذب ذلك الحديث
عن ملك مصر الغابر ، وما كان لها من مكانة لم ينلها
الاوائل والاواخر ، وقد سحرنا ذلك الحديث الساحر
وأنسنا مرور الوقت ، فقالت الملكة لى وهى تبتسم :

— أما لك بطن يا بنية ؟ هذه ساعة ينبغى أن نرتب
لأنفسنا فيها شيئاً نأكله .. فما رأيك فى هذا ؟ ..
— الرأى رأيك يا مولاتى .. ولكن أين نأكل ؟ أثمت
مطاعم عامة ؟

— فى طيبة ولا مراء مطاعم عامة ، لانها حاضرة الدنيا ،
لا ينقطع عنها وفود الغرباء من ذوى الحاجات أو ذوى المطاعم
— اذن نميل الى أحدها ...

— كلا .. بل نميل الى مائدة جدى لأمى ، توىا ، والد
الملكة تى ، فانه قد أولم الليلة لمناسبة حفلة الانعام على
المخلصين من القواد العظام .. فهيا بنا الى قصره ، فهو
قريب من قصر فرعون هذا ...

ودخلنا فاذا سور عال ، وباب له عمد كأبواب الهياكل ،
وساحة تدخل اليها المركبات يجرها جواد واحد، والسياس
يأخذون بأعنة الخيل ، فيرقى المدعوون الدرج القليل الارتفاع
الى شرفة يدخلون منها الى قاعة الاستقبال ، يحف بهم منذ
أول الدرج عبيد رب الدار وأبنائهم، وقد يخرج هو لاستقبال
الاثيرين ..

ولكن الملكة لم تدخل مع الداخلين ، بل قالت لى :

— ان الاستقبال لم يبدأ بعد ، وليس هؤلاء الوافدون هم أكبر المدعوين مقاما . فتعالى أولا أدخل بك المطابخ ، لترى بعيني رأسك اعداد ذلك الطعام الذى ستتناولينه

•• خلف القصر

فدركنا حول القصر الى بنائه الخلفى ، حيث المطابخ والمخبز ومخزن المؤن وما اليها •• فاذا ثور افريقى مسمن حتى أنه لا يحرك قوائمه الا بصعوبة ، يقوده الرعاة فيسلمونه الى القصابين فى رجة صغيرة أمام المطبخ ••

فأقبل القصابون الاربعة على فريستهم الكبيرة ، فعدوا حبلا حول قدمه اليسرى الأمامية ، وقذفوا طرف الحبل من فوق ظهر الثور فتلقفه زميل للقصاب الأول فجذبه حتى أكره الثور على رفع رجله المربوطة عن الارض • وفى هذه اللحظة انقض الاثنان الآخران على الثور ، فشد أحدهما قرنيه الى الخلف ، وقبض الآخر على ذيله • واجتهد القصاب الاول — الذى ربط رجله اليسرى — فى رفع رجل أخرى من قوائمه الخلفية عن الارض • فوقع الثور على الارض ، فاجتمع القصابون على ربط قائمتيه الخلفيتين بالحبل الى قائمته الاولى التى بدأوا بها •• وكذلك أضحي الثور عاجزا عن انقاذ رقبته ، التى أنحى عليها أشد الفتیان بأسا ، وكان قد شحذ سكينه التى لا تكبر طول الكف كثيرا فوق حجر صغير معلق فى ثوبه القصير ، فأغمدتها فى رقبة الثور ، ثم تلقى الدم فى وعاء خاص ، فقدمه الى موظف معين من رجال الدين ، من اختصاصه تشمم الدم لفحصه والتثبت من خلوه من الآفات •••

ثم بدأت بسرعة البرق ، عملية تقطيع أوصال الذبيح على نسق خاص • فلما فرغنا من ذلك المشهد المثير ، قالت لى الملكة :

— هذا هو اللحم المسمن الذى سيطعمه الناس .. فتعالى
الآن الى جانب آخر من المطابخ

ومضيت معها .. فاذا طهاة يذبجون من الطير عددا
لا حصر له ، بين بط وأوز وحمام وأرانب ... فقلت وأنا
أقلب نظرى فى هذه المجزرة التى تعالت منها الاصوات
المتباينة :

— هذا بديع .. ولكن أما من دجاج ؟

— ولماذا لا تسألين أيضا عن الديكة الرومية ؟

— وهل تحسبيننى يا مولاتى أجهل أن الديكة الرومية
لم تعرف الا بعد كشف أمريكا ؟

— فاعلمى اذن أن الدجاج والديكة لم تكن قد عرفت بعد
فى عهدنا هذا ، فى الأسرة الثامنة عشرة ...

— وأسفاه .. ولكن أظن ماء النيل فى عهدكم كان كعهده
الآن ؟

— ماذا تعنين بهذا الكلام ؟

— أعنى أنتى أحب السمك كثيرا ، المقل من المشوى
والمطبوخ فى أوانى الفخار بفريك القمح ...

— ما شاء الله ! فاعلمى اذن أن جدى لأمى كاهن من
المدققين .. والمدققون من الناس فى زماننا لا يأكلون
السمك وان كان سائر الناس يأكلون بعض أنواع السمك
دون بعضها الآخر .. فليس كل انسان قادرا على أكل
اللحم . فمن ذا من العامة والفقراء يستطيع أن يذبح لطعام
أهله ثورا ؟ وبهذه المناسبة : «من أى البلاد أنت فى مصر؟»

— من الفيوم يا مولاتى !

— اذا عرف السبب بطل العجب ! ان أهل الفيوم على
عهدنا كانوا صيادى سمك محترفين .. والعرق دساس
كما ترين ، فها أنت تتشهين السمك !

- والخضر يا مولاتى ؟ أى أنواعها سنأكل ؟
 — انظرى : هذه أكداس من البصل ، والكراث ، والفجل ،
 والثوم ، والقثاء ، والفول والبطيخ والشمام والخيار ...
 — أما من خضر مطهو اذن ؟
 — كلا ! فنحن لم نعرف هذا اللون من الطعام .. ولكننا
 نعرف اللبن والجبن والزبد ، ونعرف من الفاكهة العنب
 والتين والبلح والجميز والدوم ... ودخل مع الهكسوس
 وجيادهم ومركباتهم شجر الرمان والزيتون والتفاح . وإذا
 لم يكفك هذا ، فاعلمى أن ختام المائدة هو شهد النحل
 البرى والخرنوب
 — نعمة جزيلة ، نسأل الله دوامها ... ولكن كيف
 سيطهى اللحم والطير ؟
 — انه السلق على نار فحم نباتى يأتينا من بلاد النوبة ،
 ثم التحمير بالسمن ودهن الماشية .. كذلك يطهى معظم لحم
 الثور ، أما المواضع الممتازة فتشوى على أعواد من حديد ،
 فيكون منها ذلك « الكباب » الذى لازلتُم مولعين به أبناء
 النيل ... كما تشوى الطيور على هذه الطريقة ...
 — الحمد لله ! هذه أصناف لا أستغربها ...
 — وصنف آخر لا تستغربينه ان شاء الله .. وهو نوع
 من اللحم المقدد المملح ، الذى تسمونه البسطرمة ..
 — أحقا ؟
 — على وجه التقريب ! فنحن نقدد طيور الماء ونملحها ،
 ونقدمها على المائدة لونا من المشهيات ...
 — على بركة الله ! فهذا والله عشاء حافل ...

فى قاعة الاستقبال

- وابتسمت الملكة وقالت لى :
 — أرى قلبك قد اطمأن .. فتعالى اذن ندخل مع المدعوين

الى قاعة الاستقبال لكي ندخل معهم بعد ذلك الى قاعة
الوليمة ...

واستدرنا الى الباب الأمامي ، فاذا الوجوه من المدعوين
قد حضروا ، كل معه زوجه في أبهى زينة وأغلى ثياب وأبهر
حلية ، في عيونهن الكحل الفاتن ، وعلى وجوههن المساحيق
العطرة الفياحة .. واذا مصر هي مصر ، بلد التحيات
والمجاملات منذ الأزل . فما أكثر عبارات التحية والتبريك
- مرحبا ، مرحبا ! .. بارك آمون فيك . وشرح صدرك
بنوره ، وأطال عمرك . وأسعد مشيبك . وأعطاك الفنى
والعافية . وبارك لك فى ولدك ومالك ...

وما الى ذلك من الدعوات الكثيرات المكررة ، تتطاير هنا
وهناك ، حتى يلج الضيف قاعة الاستقبال .. فاذا مقاعد
من الأبنوس الفاخر ، لها ظهور عالية ، وتستقر على أربع
قوائم كل منها يمثل أسدا ، هي كلها تحفة فى الحفر وفن
التجارة وفخامة المواد الاولية . وتحلى الظهر والذراعين
نقوش بدیعة للالهة ، ومناظر الحرب وأمجاد فرعون ...

وهذه مقاعد العلية من المدعوين . أما من يليهم فيجلسون
على مقاعد بغير أذرع ، فى شكل علامة X ، تطوى وتفتح
ككراسى الشاطيء عندنا ، ولكن أخشابها ونقوشها من أجل
وأبدع ما يكون ، وتنتهى قوائمها فى الغالب برؤوس البط
ومناقيرها

وعلى الارض حشايا من الدمقس والكتان ، يجلس فوقها
الشبان الذين لم يتسع لهم مكان للجلوس على الكراسى
والمقاعد

وكان رب البيت فى الصدر ، والى جانبه زوجه ، وتحت
قدميه كلبه مستكينا ، وقد أغمض عينا وفتح الاخرى على
مألوف الكلاب حين تغفو

وما استقر المجلس بالجمع ، وفرغ معين التحايا ، حتى

أقبل الخدم والعبيد ، أخلاطا من أمم الارض ، لانهم من أسرى الحرب فى المشرق والجنوب ، يحمل كل منهم طستا وأبريقا به ماء ، لكى يغسل الضيوف أيديهم . . فان غسل الأيدي قبل الطعام وبعده تقليد مقدس عند المصريين القدماء ، فلما انتهى هذا الواجب ، خف القوم الى قاعة المائدة ، حيث أعدت الوليمة الكبرى . . .

•• هنيئا مريئا ••

وقاعة المائدة فسيحة على جدرانها وعمدها صور زاهية الألوان لمناظر الطبيعة وأنواع الطير والحيوان، أبدع الفنانون رسمها متاعا للعين ونزهة للخطر ، بعد أن كانت رسوم القدامى مقيدة بطقوس الدين ومناظر الأساطير . .

أما الموائد فصغيرة كثيرة ، منتشرة فى أرجاء المكان ، وحولها المقاعد بين ذى الذراعين وغير ذوات أذرع . . . وبالقرب منها رفوف عليها آنية الزهر ، وسلال الفاكهة ، وأطباق اللحم وقدور الشراب ونوافل البقل والخضر . . فلم يعرف القدامى تلك الموائد الكبيرة الحجم، وانما كانت المائدة يجلس اليها اثنان أو ثلاثة من الطاعمين . . .

أما الأواني الصغيرة فمن خزف جميل النقش ، وبعض الصحاف من الفضة المزخرفة . أما القدور فمن فخار أو من حجر منحوت . . . وثمت أيضا أوان منقوشة من المعدن من صنع سوريا واقريطش وجزر الاغريق

وقدور الشراب فيها « مريسة » الشعير أو البلح ، وهى نوع من البوطة مصفى، أو اذا شئت فهى البيرة التى يعرفها أبناء هذا الجيل . . وذلك هو الشراب المصرى الصميم القديم . ولكن هناك كذلك بنت الكرم من معتق النبىذ ، هدية أوزيريس الى الناس . ولكن النبىذ الحلو، الذى يشبه

فى حلاوته الرحيق من شهد النحل هو النوع المحبوب لديهم
وجلس الطاعمون حول الموائد ، والطعام كله أمامهم ،
لا يقدم طبقا طبقا كما يفعل أهل الغرب، فكل انسان مفوض
أن يأكل ما يشاء كيفما يشاء وحينما يشاء

وتحرك فى حلقى سؤال ، وأنا آخذ من طبق شيئا من
الشواء آكله بأصابعى ، فلا أدوات للمائدة هناك ، متلذذة
بهذا الطعام الذى لا يرانى أحد وهو ينساب الى حلقى ،
فقلت للملكة :

— ان الشواء متقن، ولكن أين التوابل ؟ وان الملح لكثير . . .

— انه عوض عن تلك التوابل والافاويه . . . فكلى هنيئا
كما يأكلون !

— والله انى لأرى الغبطة على وجوه القوم حقا . . . أهى
المجاملة ؟

— كلا ! فالمصرى منذ القدم لا يسعد بشيء كما يسعد
بالاجتماع مع نفر من الاصدقاء حول مائدة حافلة بما لذ
وطاب . . .

— هذا تقليد جميل احتفظنا به . . . ولكن يدهشنى حقا
أن أرى اختلاط الجنسين سائدا لديكم الى هذا الحد العجيب

— وفيهم العجب ؟ لم تكن أمة تعرف الحجاب ، وان كانت
ولاثم من سبقونا تجعل موائد للرجال وموائد للنساء . . . ومن
آداب الاجتماع ألا يختلس الرجل النظر الى حيث يجلس
النساء فى بيت داعيه . . . أما فى زمن أبى ، فها أنت ترين
أن ذلك الفاصل قد زال ، فالناس أميل الى التحرر ، ولكن
الاختلاط ليس تاما . . . فكل رجل صاحب الحق فى الجلوس
مع زوجته الى مائدة واحدة . . . ولا تجلس زوجته مع قوم
آخرين الا باذنه . . . ولكن انظرى بربك !

— الله أكبر ! ما هذه الفتنة كلها ؟ !

فقد رأيت الجوارى يدخلن فى ثياب تظهر أكثر مما تخفى،
ولا تخفى الا لتثير الفتنة بما تخفى، ينقلن الطعام من الرفوف
الى الموائد ، ويبخرن بالعود بين الجالسين ، ويوزعن الزهور
والرياحين فى ابتسام جميل ، حتى أصبح فى كل يد عود
من الريحان أو الزنبق .. وعلى كل رأس اكليل من الزهر
ناصر البياض ...

وكان الشراب قد لعب بالرؤوس، فبدأت النكات تتطاير،
والضحك يعلو كالرعد القاصف ، والقذود تتمايل ، والحدود
مشتعلة بحرارة الشراب والسرور .. فبدأ الجوارى الحسان
يعزفن على القيثارة ، وينفخن فى الابواق ، ويرقصن على
حدائها العذب ...

ثم ارتفع على الارغول صوت حنون يغنى شيئاً هو أقرب
الاشياء الى موالنا الحديث :

« لب نداء قلبك ما حييت ..

« وعطر بالطيب رأسك ...

« والبس أفخر الثياب من رفيع الكتان ...

« ولب نداء قلبك ما بقيت على الارض ..

« ولا تحرم نفسك من لذة ...

« فلكل لذة أوان ...

« ولا يرجع ما فات ...

« هيهات هيهات ...

وارتفع من السامعين الثملين اعصار عاصف من «الآهات»
المعهودة حتى هذه الايام عند « الانسجام » ، وتحدرت دموع
آخرين ، وسكت صوت المغنى ، لكى يفسح المجال لغناء
العيون ..

وهل غناء العيون سوى الرقص الموقع على الانغام ؟

ان الراقصات شبيهه عاريات ، ولكن الرقص لا يشبهه
رقصنا « البلدى » ، بل هو أشبه بالرقص الهندى : تعبیر،
وشعر ، ورموز تخاطب الحس والنفس بما لا تنطق به اللغة
فليس للذة البهيمية نصيب فى ذلك الاداء الجميل
أما الاجسام .. فلا فضول من لحم وشحم ، وإنما هى
الرشاقة على آخر طراز ، بغير مشد ، وبغير افتعال ...
واندفع الناس يحيون الراقصات بالشراب ، حتى بدأ
بعضهم يفقد وعيه ..

وأخيرا ، بدأ الغثيان والقيء ... فاستولى على الفزع ،
فابتسمت الملكة نفرتيتى وقالت لى :
— هذه أكبر تحية لصاحب المأدبة ... وأعظم شهادة له
بالكرم ووفرة الشراب وجودته ...

— رباه ! ان هذه العادة ليس أسوأ منها فى أيامنا الراهنة
الا تجشؤ الضيف فى بعض بلاد الريف فى نهاية الطعام ،
لكى يعلن لصاحب الدار أنه أكل حتى امتلاء وفاض الاناء
بما فيه ..

وأقبلت الجوارى الحسان ، والعبيد الوسيمون ، يرفعون
آثار ذلك « الشكر » لنعمة رب القصر ، ويمسحون الارض
والموائد من تلك الشوائب ... لكى تستمر المأدبة فى
صخبها ونشوتها ...
فقلت للملكة :

— مولاتى ! هيا بنا .. فهذا حسبى من مائدة الاجداد ...

المرأة والبيت

مكتبة

بناء •• وبناء ••

وعلى طنف من القصر ، بعيداً عن الصخب والضجيج ،
جلسنا نتملى جمال الليل الساكن الذى اشتهرت به سماء
مصر الصافية ، البعيدة الغور ، حين ترصعها النجوم وقد
غرب القمر عن الانظار

وقرع سمعنا من بعيد ، من فلك يجرى فوق النيل
السعيد ، صوت ملاح من أبناء الصعيد ، يتغنى بالهوى
والجوى والحبیب النازح الذى شط به المزار

« شعرها كالليل الحالك ، أو هو أشد منه سواداً ..
« وأشد سواداً من شعرها الفاحم انسان عينها الواسع
« وشفتاها أشد احمراراً من العقيق الاحمر

« ورضابهما أشهى من جنى البلح الرطيب ..
« وثدياها تحفتان أحكم وضعهما فوق صدرها الناعم

« هى منى القلب .. وأنا لبعدها مضنى حزين ..

« كم أتمنى أن ألزم الفراش عليها

« كيما تزورنى الحبيبة وتضع يدها على جبيني

« آه كم أنا عاشق

« وآه كم أنا مدنف فى هواها »

وكنت أرهف أذنى لهذا الحنين الساذج الذى ينطلق من
أعماق الفطرة الريفية المصرية .. فلما سكن الصوت ،
وانقطع صداه ، التفت الى الملكة متعجبة وقلت :

- كان الزمان لم يغير فى حياة هذا البلد الاًمين منذ

آلاف السنين ، فالآهة الحزينة ، والحنين الى الحبيب، وشكوى
الهجر والدلال ، هى هى لا تزال طابع مصر بعد كل هذه
الاجيال ...

فهزت الملكة رأسها هزة خفيفة ، وقالت :

— هو ما تقولين ، فمصر من قديم بلد الحنين والائنين ...
وهى أيضا بلد البناء بأكثر من معنى واحد ...
— رعى الله مولاتى ! هلا أبانت عما أجملت ؟

— انى أعنى المعنى المزدوج للبناء ، فالبناء هو التشييد
ورفع العماد بعد ارساء الاوتاد .. والبناء هو الزواج لاقامة
الأسرة وانجاب الاولاد . والمصرى مغرم منذ القديم بهذا
البناء وذاك البناء على السواء .. فنحن شعب يقدس الأسرة،
ويقدس العمارة واقامة بيوت الحياة والموت جميعا ، حتى
لقد كان اللفظ الذى يدل فى اللغة المصرية القديمة على
اقامة البيت واللفظ الذى يدل على التأهل بزوجة واحدا بلا
اختلاف

وحواء ؟

فقلت للملكة عند هذا :

— ذلك جميل يا مولاتى . ولكن ما كان دور حواء فى ذلك
البناء ؟ وهل هى تشارك فيه بالرغبة الصادقة والارادة
المطلقة ، أم هى سلعة السوق وأثاث البيت ، لا رأى لها ولا
صوت ؟

— بل لها رأى ولها صوت ، وان لم يكن ذلك حالها فى
جميع الاحيان ، فما كل فتى من ذوى القلوب ، وماكل فتاة
من ذوات الصبوة وأهل إلهوى ... فرأى الفتاة فى بعلمها
رأى مسموع ، وصوتها أيضا ليس أقل دويا واسترعا
للاسماع من صوت آدم فى هذا المضمار ... فتعالى معى

نحت الخطي الى شاطئ النهر المقدس ، حيث يبكر العذارى
للسقيا ...

ومضينا « والشمس في خدر أمها ، والطل لم يجز ذائبه » ،
حتى بلغنا حي السوق ، وتجاوزناه الى أرباض المدينة من
أطراف الريف ، فاذا صبایا يحثن الخطي الى النيل ، وعلى
رؤوسهن الجرار ... والمآزر السود ، فهتفت :

— هذه بردة الصعيد ، وتلك جراره لم تتبدل
فقالت الملكة :

— وقلوب أبنائه وبناته أيضا لم تنزل على عهدھا الأول ...
ثم ارتفع حذاء لطيف النغم في سكون السحر :
« أخي ... قد سبى قلبي صوته العميق ...
« آه ! كم صوته عريض هذا الأخ الوسيم
« الذي تجاوز داره دار أمی ..
« ليتني معه في داره ! ..
« ولكن لأتركن لأمی تمهيد هذا الوصال !
« بل يا ويح لی ! انه المسئول أن يطلبني ...
« وأنا بعد هذا حرية أن أستجيب ..
« فتعال يا أخي الى أمی واطلبنى ...
« کی أكون لك على شريعة الالهة ..
« واتبعك الى الأبد ...
« آه يا أخي ! يا له من حلم ...
« فهلا اقتربت منی کی أشهد جمالك ..
« ان أبی سيسر بك كثيرا ...
« لأن وسامتك وفراحتك تشرحان جميع الصدور
« والاجماع على اطرائك معقود يا أخي الحبيب .. »

وسكن الصوت ، وغرد فى الأفق البعيد طائر مبكر ،
أو لعله الكروان ٠٠٠ سلطان المغردين فى سماء وادى النيل
٠٠٠ فقالت الملكة بعد صمت قليل ، كأنها تستمرى ذلك
الصوت الحنون :

— ان الأخ والأخت كنية الحبيب والحبيبة فى مصر
القديمة

ولم تكذ تتم عبارتها ، حتى انبرى صوت فتاة أخرى من
سرب العذارى ، يتغنى فى صوت رخيم بأغنية أخرى من
أغنيات الهوى والشباب والأمل الحلو :

« مررت بالدار ، دار هذا الحبيب ٠٠

» فألفيت بابه مفتوحا

« وكان حبيبي واقفا فى الرحبة

» ومن حوله أمه وأبوه وأخوته وشقيقاته

» وحسنه الباهر يأسر كل عابرة سبيل !

« فأدبه واناقتة ليس لهما مثيل

» بين أبناء الخاصة من أهل الظرف

» ورشقنى « أخى الحبيب » بنظرة ٠٠٠

» يا لها من نظرة !

« فاختلج جسمى كله بالفرحة الطاغية

» وتمتعت وحدى بهذه النشوة الحلوة ٠٠٠

» لأننى كنت وحدى حين عبرت الطريق

» أمام باب الأخ الحبيب ٠٠

« لله كم انتشيت بتلك النظرة !

« فليت أمك يا أخى عرفت مكنون قلبى

« اذن لحث الحطى الى دار أمى ٠٠

« وطلبت اليها قرب النسب .. »
 « فأذنى أيتها الالهة التى ترعى المحبين
 « وألهمى أمه هذا العمل الصالح
 « حتى يتسنى لى عندما أرى أخى الحبيب
 « ان أعدو نحوه أتشمم ريحه العطر
 « ولا أمر هكذا بعيدا فى فرحة مكتومة
 « هى أشبه الاشياء بخلسة المحروم ! »
 وتندت عيناي بالدموع لهذا النشيد الساذج الصادق ،
 فقالت لى الملكة وهى تبتسم :
 - ان الشباب جميل كالأحلام ...
 - أجل ، وفارغ سريع الزوال كالأحلام أيضا ، ينخدع
 بها الحالمون ...
 فقطبت الملكة حاجبيها وقالت :

- صدقت لو أن الشيخوخة أكثر دواما وثباتا وحقيقة
 من هذا الشباب الذى تزعمينه فارغا سريع الزوال ! كلا
 يا بنية ! لا عيب فى الشباب الا أن يطيش عن المعالى ويشغل
 بغرور القوة الحيوانية فيه واشباع نهمه الى اللذات ... أما
 الشباب فحبذا هو ، وانه لعمري بمنزلة الربيع من الزمان ،
 لا يعدله فى العمر زمان ... وانما ينعى الشيوخ على
 الشباب الجهل لا قوة الاحساس والحيوية ... فهى الرغبة
 فى جمع شيئين متباعدين : القوة وحكمة المراس ...
 فقلت للملكة :

- لقد سمعت صوت حواء ، تترجم عن قلبها .. ولكن
 هل للقلوب حقوق فى هذا العهد السحيق ؟
 - أجل ! فكثيرا ما يحترم الآباء رغبات البنات والبنين ،
 اذا عرفوا أنهم متحابون ، فلا يكرهونهم على ما لا يريدون

الا أن يكون مانع من موانع التقاليد وأوضاع العرف
- وبعد الزواج يا مولاتى ، هل تخفت أصوات الهوى
ونشيده الحلو النغمات ، ويبطل ذلك الغزل الرقيق ليحل
محلّه الواقع العملى العارى عن الطلاء والتزاويق ؟
- لا ! فالزوج العاشق يظل ينادى زوجته « يا أختاه » ،
وهى تناديه أيضا « أختى » . . . ويظل التعاطف الجميل
بينهما سائدا . . .

- لعلها مرادفات اللغة ، فهل كلمة أخت تعنى الزوجة ،
وكلمة أخ تعنى الزوج ؟
- كلا ! فاذا كانت قضية فى المحكمة لم يستعمل هذان
اللفظان بذلك المدلول التدليلى ، وانما يقال زوج ويقال
زوجة (« هاى » و « هيميت »)

مراسم الزواج

فقلت للملكة :

- ومراسم الزواج يا مولاتى ؟
- أبسط ما يكون . . وحسب اتفاق الآل من الطرفين ،
وأهم ما فيها « زفة العرس » من بيت الفتاة الى بيت الفتى ،
ومن حولها الأهل والصحب يحملون الهدايا والألطف .
فليس فى حياة المرأة الا موكبان حافلان : موكب الزفاف الى
الزوج ، وموكب الزفاف الى القبر . وفى كليهما يحمل
الأهل والأصحاب الهدايا والتحايا ، زادا للعروس فى
دنياها أو أخرها

- أما من عقد مكتوب ؟ . .

- هناك سجل لعلية القوم من آل فرعون فى قصره ،
يكتب الكتبة فيه ذلك الحدث العظيم ، حفظا للانساب من
الاختلاط والنسيان . . .

- أما من بركة من الكهان ؟

— أجل ! يمر العروسان وأهلوهما بالمعبد ، فيقدمان
القرايين طلبا لليمن والخصب من آلهة النسل الخصيب... .

داء قديم

فقلت للملكة فى استبشار :

— أكاد أجزم من هذا الذى سمعت وعرفت أن المرأة
كانت عالية المكانة ، تتمتع باحترام كاف ، وللرجل فيها
رأى حسن

— لا تجزمى ! فسوء رأى الرجال ، ولاسيما الكهول
منهم ، فى المرأة داء قديم . فالادب الفرعونى لا يترفق بالمرأة
كل الترفق... . فهى موصوفة فيه بالتفاهة ، والنزق ، وخفة
العقل ، وسرعة التحول ، وتقلب الآهواء . يخدعها ظاهر
الأمر ، ولا تحتفظ فى صدرها بسر... . تحب الزهو ،
وتضحى فى سبيله بأثمن الذخر ، ولا تبالى فى سبيل شهوة
الساعة بالسمعة والطهر... . تكذب ارتجالا ، وتنافق على
السليقة ، وتحب الخيانة ولو استبدلت الذى هو أدنى بالذى
هو خير

فقلت للملكة :

— صدقت مولاتى ، انه الداء القديم... . ولكنى أرى
المسئولية فيه عليكم معشر الاجداد لا علينا ، فقد رسخ فى
نفوس المحدثين بالعادة الموروثة ذلك الرأى القبيح فى
المرأة ، والناس على ما وجدوا عليه آباءهم من قبل

— أصبت ! ففى آدابنا اسطورة مأثورة ، أحسبها لا تزال
قائمة فى الاسماع هى بعينها أو نظائر لها من قبيلها
ومعدنها

— وما ذاك يا مولاتى ؟

— قصة « بيتاوى » الفتى العف ، وامرأة أخيه الكبيذات
العرض المثلوم والعفة الرقيقة والمكر السىء

— اسمعينيها مولاتي مشكورة ..

— زعموا أنه كان فيما مضى من الزمان اخوان متحابان ،
ربى أكبرهما أخاه اليتيم ، واسمه « بيتاوو » ، حتى كبر
وصار فتى فارها . وحان أوان انحسار ماء الفيضان عن
الارض ، وأن أن يبذر فيها الحب ، فمضى الاخوان الى الحقل .
ولكن الحب نفذ منهما ، فعاد الأخ الاصغر بيتاوو الى الدار ،
فحمل على كتفه غرارة ثقيلة من البذور كأنها شيء خفيف
الحمل ، فسر منظره قلب زوج أخيه ، وتحركت في أعماقها
الشهوة الحبثية ، وطغت عليها تلك الرغبة الجامحة ، فقالت
له : « دع هذه الغرارة عن ظهرك يا بيتاوو ، وتعال اضطجع
معى ساعة أو بعض ساعة ! تعال ، وسأحيك لك ثيابا جميلة » .
فأبى الفتى أن يجيبها الى ما طلبت ، وقال لها : « انك حرام
على كظهر أمي .. وزوجك منى بمنزلة أبي .. فلا تذكرى
هذا لى مرة أخرى ، وسأكتمه أنا عن كل انسان » . وتركها
خجلى محنقة ، ومضى الى الحقل . فاتهمته عند أخيه الكبير
بأنه راودها عن نفسها فاستعصت عليه ، وكان هذا الأخ
أحمق فقتل أخاه العف ...

— رباه ! كأنى بهذه الاسطورة وقد سمعتها فى صياغة
أخرى ، وان كان الجوهر واحدا ...

— ربما ... ولكن للاسطورة بقية !

— وما هى يا مولاتي ؟

— لقد قتل بيتاوو مظلوما ، فبعثته الالهة ، فعاش فى
القفار بعيدا عن النساء وكيدهن ... فكفاه ما لقى من ذلك
فى حياته الاولى ، فرقت الالهة لوحده وخلقت له امرأة
شارك كل الاله فى خلق بضعة منها ، فجاءت آية فى كل
شيء .. ولكنها امرأة بعد كل شيء ! فسرعان ما خانته خيانة
فاحشة بعد أن أوسعته عصيانا وشكاسة ، فتركها وتمنى
على الالهة فجعلته ثورا لينجو من تعقبها وكيدها . وكانت

هى قد وصلت بالجمال والدهاء الى سرير فرعون ، فجعلت
فى ساعات الصفو تغريه أن يذبح ذلك الثور الجميل ! فتمنى
على الله أن يحيله شجرة ، فسعت جهدها أن تجتث تلك
الشجرة امعانا منها فى التنكيل به ! ..

— يالها من اسطورة !..

— وهى الى هذا صورة صادقة لقيمة المرأة فى نظر المصرى
القديم ، اذا ارتفع عن عينيه نقاب العشق الجارف . فالمرأة
مجتمع الرذائل ، ولا وفاء ولا أريحية الا فى الرجل ...

— لاحول ولا قوة الا بالله !..

— ان القلة الفاسدة من النساء هى سبب هذا الرأى
القبيح فى المرأة المصرية . فالزنا كان ولا يزال من أقبح
العيوب ، وعقابه عند الفراعنة القتل والقاء الجثة للكلاب ،
حتى لا يتسنى لها بعث جديد فى الحياة الاخرى ... أما
المرأة الفاضلة ، فتاريخنا حافل بالتغنى بها وتمجيدها ..
وكم من قبر شيده أرمل لزوجته المتوفاة وسجل على جدرانها
حزنه العميق عليها وتعلقه بها ... فليس فى الفراعنة ذلك
الحياء الذى يذكره الشاعر العربى جرير بن الحطفي فى رثاء
زوجته :

لولا الحياء لهاجنى استعمار

ولزرت قبرك ، والحبيب يزار ...

فمن المصريين القدامى من كتب عن نفسه انه ظل ثمانية
أشهر لا يذوق النوم والطعام الا كارها لأن زوجته كانت
مريضة ، وكان هو مضطرا لمرافقة فرعون فى سفره البعيد ،
حتى اذا عاد ووجدها ماتت ألقى بوجهه على الارض فمرغه
فى التراب أمام قبرها جزعا على فراقها ...

— أكرم به من وفاء .. ولكن هل كان الفراعنة على سنة
التعدد ؟

— ملوكهم أجل ٠٠٠ أما الناس فيندر أن يجمعوا بين
أكثر من زوجة واحدة ، وإن كان ذلك فى ذاته ليس محرما
تمام التحريم

أكبادنا على الارض

فقلت للملكة :

— والاولاد يا مولاتى ؟

— المصرى هو هو ٠٠ مغرم بكثرة الولد ، يعزه ويدله
ويزهوه به ٠٠٠ فهو يأخذ ابنه الطفل معه فى المحافل ،
ويصعبه فى عمله مزهوا به ٠٠٠

— صدقت مولاتى ! ٠٠ فكم من بائع خضر جائل ، أو
سائق عربة نقل يجرها حصان أو بغل ، يصحب ولده
الطفل ويجلسه الى جواره ، ويجعل فى يديه الصغيرتين
عنان دابته ٠٠٠

— ذلك يا بنية شأن الفلاح فى الدنيا قاطبة ٠٠٠ فالولد
هو امتداد الأئب فى الدنيا ، وأمله فى التغلب على العدم
والموت والنسيان . وليس فى الدنيا ما هو أشرح للصدر
من منظر راع عجوز وحفيده الى جواره ، يرفع الجرة الى فمه
ليسقيه اذا ظمى ٠٠٠ ولأن الابن امتداد للحياة ، ووارث
للعمل والحقل والاسم ، كانت الفرحة بالذكر أشد من الفرحة
بالانثى عند الميلاد ٠٠ فالولد هو الذى يعنى بدفن أبيه ،
وبصيانة قبره والسهر على راحته فى الحياة الاخرى ٠٠
ولكن ليس معنى هذا ان البنت كانت منبوذة . كلا ! فهى
ريحانة البيت ، وسترين أى مكانة كانت لها فى الأسرة
على عهد ملكى وزوجى اخناتون ٠٠٠

— لقد كاد النهار يطالع يا مولاتى ، فهلا دخلنا القصر ،
لنشهد يوما من أيام الحريم فى قصر أبيك العظيم ٠٠٠
— انه لرأى وجيه ٠٠٠ فهيا ٠٠

عزيم فرعون

محراب حواء ٠٠

قالت الأميرة ونحن نهم بدخول جناح الحريم فى قصر
امنحتب الثالث والدها ، عزيز مصر وفرعونها :

— سنبدأ يا بنيتى بمحراب حواء ٠٠٠

— محراب حواء ؟ وهل لها محراب يختلف عن محراب
الرجل فى عصر فرعون ؟

— أجل ، وفى كل عصر ٠٠ فمحراب حواء يا بنية الذى
تستقبله اذا طلع الصبح ، وتستقبله اذا جاء المساء ، هو
ديوان زينتها وزخرفها وحليها ٠٠٠

ودخلنا ذلك الديوان ، أو ذلك المحراب ، فاذا سيدة
ممشوقة القوام ، بيضاء البشرة فى حمرة ، وقد جلست فى
مقعد ذى ذراعين ، له ظهر عال ، وفى يدها « مرآتها » ، على
هيئة قرص من الفضة المصقولة ، ولها يد من الأبنوس المطعم
بالذهب فى صورة أعواد البردى ٠٠٠

وأما الوصيفة المكلفة بالتجميل فمتهمكة فى جدل غدائر
رفيعة من شعر سيدتها القصير ، كما هو معهود فى شعر
نساء هذا الجيل ، وقد رشقت الشعر الذى لم تضفره بعد
بدبوس من العاج ٠٠

وذلك عمل يطول ، ويلزم له الكثير من الأناة والصبر ،
وهو أطول على السيدة التى لا حيلة لديها فى هذا الانتظار
من قراءة مثلا ٠٠٠ ولهذا رأينا فتاة تدخل فتصب لها كأسا
من نبيذ ، تحسوه السيدة فى تلذذ ، ثم تأخذ الفتاة فى
الغناء والعزف لتدخل السرور على سيدتها

وأقبلت بعد لحظة عاملة الأظافر ، فجعلت تصقل أظافر
القدمين وأظافر اليدين ، ثم طلتها بدهان يشبه مثيله من
أدهنة الاظافر فى هذا العصر . . .

فلما فرغت الحلاقة من تصفيف الشعر ، انثنت نحو
الوجه تدلكه بالعطور المختلفة والزيوت ، من آنية من المرمر
الملون مختلفة الأشكال . . . ثم أخذت شيئاً من الكحل فى
مروود فكحلت عينى سيدتها ، وجعلت لهما ذلك الشكل
اللوزى المأثور

وعندئذ انتهت مهمة الحلاقة . . . فانحنت بين يدى مولاتها ،
وتركت المكان للوصيفات لينتقين للسيدة ملابسها وحليها
ذلك النهار . . . فبدأن يضمنن جسمها وصدرها وذراعيها
على وجه الخصوص بعطر عريق الطيوب . ولم أملك نفسى
أن أصبح :

— يا له من عطر !

فقالت الملكة :

— وهل أدهشك أمر العطر وحده ؟ . . انظرى الى القوارير
فَنظرت ، وفغرت فمى :

— رباه ! انها من زجاج ملون !

— أجل ! فقد عرفنا الزجاج الملون قبل العالم الغربى
بآلاف السنين . . وصنعنا منه هذه التحف الغوالي . والآن
انظرى مغرفة الطيب هذه

ونظرت ، فاذا ملعقة من خشب ثمين ، مقبضها على هيئة
أعواد الزهر ، وعليها غطاء اذا انطبق غدت مثل برعم الوردية ،
واذا انفرج كانت أشبه بزهرة متفتحة . . . فلم أملك نفسى
أن أهتف مبهورة بهذا الإبداع :

— تبارك الله فيما خلق !

— والآن انظرى ! هذا شفوف من رقيق الكتان ، يكاد
لا يرى ، ولكنه متين الى أقصى حد . . .

ولبست السيدة هذا القميص الشفاف ، ومن فوقه ثوب
كثير التعريجات ناصع البياض شفاف كذلك ، ينعقد على
الثدى الأيسر ، كاشفا عن الثدى الأيمن ، مفتوحاً مما دون
الحاصرة الى أسفل حتى القدمين

وبعد ذلك حل دور المشرفات على الحلى والجوهر ، فألبسن
السيدة أساور فى الذراعين والمعصمين ، وخواتم ثقلاً فى
أصابع اليدين ٠٠٠ ثم زين الشعر بأمشاط مرصعة باللؤلؤ
والياقوت ، وحلن الرقبة بالقلائد المصنوعة من ذهب النوبة
حتى اذا انتهت الوصيفات من ذلك ، على عزف القيان
وغنائهن ، رجعت السيدة النظر فى المرأة ، حتى رضيت عن
نفسها ، فصرفت الوصيفات بإشارة من رأسها ٠٠٠
فقلت للملكة :

— من السيدة ؟

— انها بنت ملك ، وزوج فرعون ٠٠ انها بنت صاحب
النهرين . هى « جيلوخيبا » بنت « دوشراطا » ملك الفراتين
من أقصى الشرق ٠٠٠

— ليت شعرى ، أين أقصى شرقكم من أقصى شرقنا الآن؟!
— صدقت ٠٠ ولكن أى خير فى ترامى الآماد اذا كثرت
بها الاحقاد ، وشقى باتساعها العباد ؟ ما علينا !.. أتدريين
بكم جارية زفت هذه الزوجة الأثيرة الى فرعون ؟ ثلاثمائة
وسبع عشرة جارية من أجمل نساء المشرق كافة ٠٠٠ كلهن
صرن حظايا يتداولهن فراش فرعون مع الحظايا الأخر
والزوجات بنات الأسر ٠٠٠

الملكة العظمى

فقلت وأنا مبهوتة مذعورة :

— وأمك الملكة تى ، ما مكانها من ذلك الحشد الهائل من
الاناث ؟.. لاعجب أن تضع بينهن ويضيع أثرها ٠٠٠



الملكة « تي » والدة نفرتيتي

— لا وأبيك ! ألم تضع مكانتها ولم يهدر قدرها ! .. لقد بنى بها وهو بعد فتى حديث عهد بعرش لم يصل اليه الا بفتوى الكهان وأسطورة ولادته لآمون كبير الأرباب .. تخيرها قلبه من بنات هذا الشعب ، مصرية لا شك فى مصريتها ، من أب كاهن ، وأُم من سلالة كهان ... فرفعهما وأعلى شأنهما ، وجعل لها المقام الأول فوق هذا الوادى المقدس

— لقد أشاع قوم أن « تى » من بنات ملوك المشرق ، مما يلى الفراتين ...

— كذبوا وما صدقوا .. فهى مصرية خالصة المصرية ..

— ولكن هل تسنى لابنة الشعب أن تتكيف بحالتها الجديدة ، فتصير أهلا لهذا المقام الذى لا يدانيه مقام ؟ ..

— عجبا لنفوس بنى الانسان ! ان من بنات الشعب من أهلهن القدر للملك وهيبته وسماحته .. وان من بنات ذوى التيجان من ترينهن فتحسبينهـن — مظهرا وشارة وحديثا — من أعم العامة .. وليس هذا شيئا نادرا فى أى عصر من عصور التاريخ ..

— هذا حق يا مولاتى .. وقد شهدنا مصداقه فى كثير مما ترامى الى سمعنا فى هذا العصر الأخير ...

— يضاف الى هذا أن « تى » وهبت من جمال الروح ورجاحة العقل ونفاذ النظرة فى كل أمر ، ما جعلها كاملة السيطرة على ذلك الزوج العجيب . فهى عنده ريحانة القلب، ونزهة العقل وال خاطر ، وميناؤه اذا عصفت العواصف أو أصابه السأم من التجوال فى بحار الملذات . فلم تكن كضراتها متاع جسد وعليقة غريزة ... فالغريزة عمياء ، والجسد لا يميز الحبث من الطيب . لهذا كثر تجوال أبى لأنه كان رجلا منهوم الغريزة ، حتى قيل عنه انه رجل

لا يمل النساء . ولعمري انه ليس فى الآراء رأى خطأ أو
أفسد من هذا الرأى البدائى !

— وى ! آلاف النساء يملكن ، ولا يقال انه رجل
لا يمل النساء ؟ ..

— نعم ! فالذى يتنقل بين الاشياء من جنس واحد ، ولا
يستقر عند واحد منها قط ، رجل ملول لهذه الاشياء، يبحث
أبدا عن شىء منها لا يمله ولا يضيق به .. ولكنه لا يجده
أبدا !

— يا له من تأويل !

— أما أمى الملكة العظمى «تى» ، فلم تكن ضمن « مقولة »
هذا الحشد من الاناث . فهى وحدها كانت « انسانا » .
كانت واحة قلب فرعون لا حان خمره ولا ماخور تبذله ..
لهذا وقف عندها وأخلد اليها . ولكنها لم تعصمه بهذا
الاخلاق والاطمئنان المستقر عن طلب « الاناث » طلبا لا يفتقر .
لأنها لا تغنى عنهن ، كما لا يغنين عنها !

— يا له من تحليل .. أو تحليل ...

— بل هو علم اليقين .. فما رأيت أمى مجزونة قط لما
ترى من ولع أبى بالاناث ، فما كانت تراهن مثلها ولا ترى
نفسها مثلهن . وكانت تدرك أن الفارق بينها وبينهن فى
الفطرة وفى وجدان أبى فرعون واضح راسخ .. فلم تغر،
وربما كانت عوناً له على بعض ما ينشده من لذة فى هذا
الميدان توكيدا لترفعها عن منافستهن ، وعلوها عن دركهن
مهما علا نسبهن واستطال ، وفيهن بنات الملوك والأمراء .
أما أبى ، فكان توكيده لهذا المعنى سافرا واضحا ، فما بنتى
بنت صاحب النهرين وبأخته من قبلها الا سجل فى
وثيقة ذلك الزواج وتذكاره الرسمى ، مكانة تى ومقامها
الاسمى ، وانها كانت حاضرة على رأس الحفل . وسجل

كذلك حضور والديها الكريمين ، ليعلم من لا يعلم ان أى زواج لن يبلغ زواجه من تى ، وان صلته بها أرقى من كل صلة يعقدها ، وان « تى » هى الجوهر الباقي وما عداها بهرج لا يبقى . فهى كالأم من فرعون ، لأنها ملاذ الروح والفؤاد ، وليست مجرد ضجيرة فراش ساعة من ليل أو ساعة من نهار . . . فهل كنت تريدونها بعد هذا أن تغار ؟

— لا والذى نفسى بيده . . . ما من امرأة ذات قلب كبير وذوق مرهف أوتيت برهانا على مكانها عند زوجها كما أعطيت تى وسط هذا الحريم ! انها لعمري حرة أن تزهو وليست قميئة أن تغار

— كذلك كانت أمى ! لا تنزل بنفسها الى منافسة هاتيك الإناث ، وتزهو بعلوها فوقهن جميعا بمقامها فى الدولة ومقامها فى قلب فرعون . . . فهى التى تبدو معه فى المحافل الكبرى ، وتترغم معه المراسم ، وتستقبل معه وفود المصاهرة من كل قبيلة فى الشرق ! وأما أبى فقد انطلق على سجيته ، لا يهتم بأحد من زوجاته وسرياته الأخريات ، لأنه لا يمنع عن شيء من ذلك متى اشتهاه ، فلا يتعلق بواحدة منهن . ولكن يطلب المزيد دواما . فأهم ما يطلبه من أمراء ولاياته وسفراء عرشه فى الاتفاق أن يتخيروا أسراب العذارى الفاتنات ، فمبلغ اخلاص الامير أو الحاكم عنده هو مقدار تبريزه فى « توريد » هذه البضاعة من اللحم الابيض !

— انه فساد الحكم وضياع النخوة !

— هو ذاك ! فجزية الولايات كان معظمها من عذارى الولاية ، وسبيل الترقى هو هذا الباب الواسع الى مخدع فرعون ، وسبيل المهاذنة والحلف السياسى هو تقديم ملك الدولة الحليفة الى آمنحتب الثالث ثلاثين أو أربعين عذراء حسناء بكرا . . . فهذا « أرشيف » وزارة خارجيته لا يحفل بشيء كما يحفل بأوامره الى أمراء « أورشليم » و « جيزر »

وأمرء سوريا فى طلب « ترحيلات » من ذلك اللحم البشرى
الطازج ! ذلك عدا الأميرات من بنات ملوك بابل وآشور
وغيرهما ٠٠٠ حتى لقد يجمع بين الأميرة وعمتها أخت أبيها
٠٠٠ ولا يدخر فى سبيل تلك الزيجات الملكية نفقة ولا
بذخا ، بين مهور واحتفالات ٠٠٠

— لعمرى ان هذا لهو السفه بعينه ٠٠٠

— نعم وا أسفاه ! ولكن فرعون كان حريصا على شىء
واحد : فهو لم يرض أبدا أن يبادل ملوك الشرق صهرا
بصهر ، فلم يقبل تزويج بنت من بناته لملك بابل ، مصرحا
فى غير مواربة أن بنت فرعون لن تعطى قط لغريب !
فقلت للملكة :

— جزاه الله خيرا ! فلو فعلها لكنت لتلك الدول فى عرش
مصر من بعده مطامع قد تنجلي عن مواقع ومعارك . ولكن
الله سلم ٠٠ بيد أنى أتساءل عن ثمرة ذلك الحريم الضخم ٠٠
— وفيهم السؤال ؟ انه لم يجعل فى حريمه مقاما يضارع
مقام الملكة العظمى تى ، فنسله منها هو خلاصة الخلاصة ،
وهو وحده الحقيق بالذكر والعدد ٠٠٠

— وكم بلغ يا ترى ؟

— لم يبلغ كثيرا بلغة الأرقام ٠٠ فلم يعيش لأمتنا تى الا
أنا ، وأخوان هما تحتمس وامنحتب ٠٠ ثم مات تحتمس ،
وعاش امنحتب ليحفر اسمه فى التاريخ بحروف من نور ،
حين بشر باله واحد نور من فوقه نور !

مجمع النقائض

تلاقى الاضداد

قلت للملكة عند هذا :

— انه لحزى ليس بعده خزى أن تتحول الدولة الى مهرجان شخصى . وانى لأستميح جلالتك عذرا فى هذه الصراحة . . .
فقد انقضى كل شئ ، ولم يبق من هذا كله الا ما يعتبر به
المعتبر

فقالت :

— هو ما تقولين ، وأكثر مما تقولين . فليس أفدح الخطب أن تكون الدولة أداة مجد شخصى أو أبهة وزينة وزهو للحاكم . . . فذلك وحده يهون وان لم يكن من الهنات الهيئات ، وانما الخطب الذى لاخطب يعدله ، هو التغير الذى يطرأ على تكوين النظام الاجتماعى والعرف الخلقي فى الأمة بسبب هذه السياسة التى يجرى عليها مثل ذلك الحكم . . . فاذا كان فرعون رأس الترف والبذخ والأبهة ، فعلى سنته يجرى الخاصة وأهل النفوذ من رجال الدولة ووجوه البلاد . . .
فيرتفع رأس القصر ، ويشمخ بأبراجه الى أعنان السماء ، ويتلاقى معه الكوخ المتداعى الجدران فى صعيد واحد . فانه لا يكثر الذهب فى موضع الا لقلته فى موضع آخر ، ولا تكثر التخمّة فى بطن الا اذا طوى بطن آخر على جوع وحرمان . فاذا قلنا عصر الأبهة فقد قلنا أيضا عصر الذلة والمسكنة . واذا قلنا عصر الترف ، فقد قلنا عصر الحاجة والفاقة ، واذا قلنا عصر الملذات واطلاق العنان للشهوات ، فقد قلنا عصر الرقيق ، تباع فيه الاجساد بدريهمات أو لقيمات ، ولا شغل فيه للمحرومين الا الترفيه عن المترفين .

فهو عصر النور والظلام ، وعصر الحرية والرق ، وعصر القدرة والعجز ، وعصر الرخاء والفاقة . . . انه ملتقى الاضداد

فقلت للملكة ، لاهون عليها خطبها :

— مولاتى ! انه داء أصيل فى كل بلد وكل مجتمع ، أن تكون فوارق بين الناس فى الرزق ، وفى الصحة ، وفى الوسامة ، وفى الحظوظ . . .

فقلت الملكة فى حرارة تكاد تشبه الحدة :

— وهل قال أحد بتحريم الفروق أو رفع أسباب المباينة؟ ان الكون لا ينتظم الا بتلك الفروق . ولكنه يختل أيضا اذا زادت هذه الفروق على حدها المعقول . فنحن لا نغيب على زماننا ذاك الا أن الفروق قد تضخمت نتيجة للاختلال النفسى والخلقى ، لا انها سبب اختلال الاخلاق والضمائر كما قد يتبادر لبعض الاذهان

— عفوك مولاتى ! لم أحسن فهم مرماك من هذه العبارة الاخيرة

— أمرها يسير : فالناس منهم من يرى اختلال النفوس والاخلاق والذمم ناجما عن اختلال التوازن فى الارزاق والحظوظ . وهذا خطأ فى رأى ليس مثله خطأ . . . ذلك ان اختلال النفوس والضمائر هو الداء الأصيل الذى ينجم عنه اختلال التوازن فى الارزاق فى المجتمع الواحد

— وكيف كان ذلك ؟

— ان حب الذات ، وتقديم الملمات ومظاهر الأبهة على ما ينبغى من العدل والنزاهة والعفة ، هو الباب الذى ينفذ منه الوصوليون الى الغنى والنفوذ ، فيحرم الضعيف من حقه القليل ، ويشرى على حسابه الأقوياء . ويسرى بين أهل الحكم نوع من التواطؤ على أكل حقوق المستضعفين ، لما بين أهل الحل والعقد من منفعة مشتركة وتواطؤ على الاغتصاب

والكسب الحرام • فتضيع ثقة الناس فى عدل الحكومة •
ولا يفلح مجتمع تضيع الثقة فى نظامه قط • • • مهما بلغ
حسن مظهره ، وخبلى الابصار بريق ذهبه وجوهره • • •
— ذلك والله فصل الخطاب فى موطن الداء من كل مجتمع
أصابه ذلك المصاب • فالعدل أساس الملك ، والثقة بالعدل
أوجب من العدل

الأصيل والدخيل

فقال الملكة مستدركة :

— ولكن اختلال التوازن ، وفساد الذمم ، وضياع الثقة
عند القائمين بالأمر ليست مبلغ الداء فى ذلك الزمان •
فتلك الفتوح التى كثرت واستقرت تسربت منها الى مصر
معتقدات جديدة ، وصور فكرية وعرفية لم تعهد فى البلاد
من قبل • وأدرك المصريون أن آلهتهم ليست هى الآلهة الوحيدة
وأن معتقداتهم ليست وحدها ذات القيمة والرسوخ فى
السرائر ، فتزعزع اليقين الأعمى ، وتفتحت العقول
الساذجة ، ونشأت « فكرة العالمية » بعد أن كانت القومية
دينا لا يتصور الناس سواه • •

ثم سكنت الملكة لحظة وهزت رأسها مبتسمة ، فقلت :
— أضحك الله سنك يا مولاتى !

— أمر خطر لى فى مفارقات أحوال بنى الانسان : ففى
ظلال العالمية تنشأ الفردية • • وهى فى ظاهر الأمر نقيضها
الذى لا يجتمع معها • ذلك أن الانسان اذا آمن بالعالمية ،
قل ارتباطه بالمحور القريب من قبيلة أو أمة ، وأدرك أن
« الفرد » هو وحدة النوع كله وليس مجرد جزء من شعب ،
فكل فرد « عالم » بذاته فيه انطوى العالم الأكبر •
ومن العالمية التى تنطوى على الشعور بالفردية ينشأ التحرر
الدينى ، والتحرر الفكرى ، كما تنشأ الانانية وينشأ الكفر

بما تمثله الاديان القديمة . . . وبين ذلك وبين الكفر بكل
ديانة على الاطلاق خطوة واحدة . وهذا هو ما جعل الناس
يعبدون شهواتهم ساخرين عمليا من نواهي الدين وفضائله

بين المعبد والقصر

فهمتفت :

— عجبا ! لقد أقام الكهان من سدنة آمون هذا الفرعون
على العرش ، فهل يكون هو عينه سبب بوار ذلك الدين؟ .
— أجل . . تلك مفارقة أخرى في بلد المفارقات . وقد
عجب لها كهان آمون وسخطوا . ولكن ماذا كانوا يستطيعون
أن يفعلوا ؟

— أليس من يولى قادرا أن يعزل ؟

— ليس دائما ! فان من يفتح القمقم فيخرج منه الجنى
لا حول له باعادته اليه متى شاء . . اذا كان الجنى أريبا
حصيفا . وكان فرعون أريبا حصيفا . وماذا كان كهان
آمون فاعلين بعد أن قالوا انه ابن آمون ؟ وماذا يقولون
والعرش مقدس مصون ، لا يخلع شاغله ولا تمس ذاته ؟ . .
فما بالك وفرعون يغدق العطايا بغير حساب ، حتى جمع
حوله أهل النفوذ كافة ، ودانت له جميع الرقاب ، في زمن
بيعت فيه الضمائر ورخصت فيه الذمم ، وأصبحت الغيرة
على الحق شيئا مضحكا سخيفا أو ضربا من السفه والبلاهة !
— هي الأبهة والملك العريض اذن ، ومن تحت ذلك كله
جسم عليل ، اجتمعت عليه الادواء التي يتعارض علاجها . .
— وحتى هذا الملك العريض يا بنية لم يكن كأمس صرحا
ثابت الدعائم ، وان بدا في شموخه ولائله كأمس وأبهي
. . . فان الاخلاص الى الترف ، وتكليف الأمراء والولاة جباية
المال ، وتجنيد الابكار لاشباع شهوات فرعون ، قد سمح
للانحلال أن يدب الى ذلك الصرح فيتصدع شيئا فشيئا ،

وفرعون لاه عن ذلك كله ، يعالجه بالسكوت والاغضاء ،
استبقاء للراحة . فليس يعنيه من بلاد الامبراطورية الا
ما يأتيه من سمئها وعسلها ولحمها الابيض ! فالغفلة والشهوة
طابع ذلك العصر المنكود . . .

والعتاد والأجناد ؟

فصحت في دهشة :

— والعتاد يا مولاتى والأجناد ؟ ماذا صار من أمرهم في
ظل هذا الفساد ؟

— مفارقة أخرى ! فالجيش قد صار ملاذ أبناء البيوت
الوسطى ، يجدون في خدمته شرفا لا يصلون اليه في الخدمة
المدنية . . فاحتفظت ألوية الجيش بذخيرة طيبة من كرام
الناس ذوى الخلق والمبادئ ، وان بقى عمل هذا الجيش
العتيد هو المشى فى الموابك والمحافل . .

— الله أكبر ! ألى هذا صار جيش فرعون وسيفه البتار ؟ .

— أجل . . وفرعون نفسه الذى كان يسبق الصفوف
فى حومة الوغى كأنه اله الحرب شجاعة وبأسا ، تحول على
سنة الترف تحولا طبيعيا ، فصار السيف الصقيل والسهم
المريش لا يضرب فى صدر العدو . . . وانما فى قرن بقرة
من بقر الوحش ، أو أيل من أيائل الصحراء ، أو تيس من
تيوس الفلاة . لقد انقلب القائد صائدا . . . وانقلبت
أكاليل المجد جلود ماشية من دابة الارض ! فالسيف هو
السيف ، والقوس هى القوس ، والهمة هى الهمة ، ولكن
فسد الزمان ، فتغير الميدان ، وصار الزهو بالصيد موضوع
تساوير تملأ الجدران ، وتنظم فيها القصائد الحسان !

— مولاتى ! تلك حملة شديدة على أب . . .

— رويدك ! لولا أن أصفحة طويت ولم يبق فى الدنيا
مطمع لما انطلق اللسان ولما صدق البيان . . .

— تلك يا مولاتى عيوب كثيرة ، فهل ليس لذلك الزمان
حسنة واحدة ؟

— له حسنة لا شك فيها ، هى الشفيع الوحيد اذا عز
الشفيع !
— وما تلك ؟

— ذلك الفن الجميل الذى تحرر من كل قيد ، وارتقى
الى أفق لم يبلغه من قبل ، فقد خلف الترف والبذخ ذلك
التفنن فى الصناعة ، وتلك المهارة فى العمارة ، وذلك الابداع
فى التزويق والتصوير ...



حصار الشبهوات

بكر

أصبع الزمار ..

وقالت لى الملكة فجأة :

— والآن تعالى يا بنية لترى هذا الفرعون العزيز الجانب ،
القوى الساعد فى الصيد ، الطويل الباع فى لذة الكأس
والوتر ... وقد بلغ آخر مرحلة فى العمر

ودخلنا حديقة القصر ، فاذا زهر مونق فى أحواض بين
مربع ومثلث ، بينها ممرات منضدة بالحصباء، وعلى جانبيها
أشجار النخيل والدوم ، والمر ، والبلسم والتين والرمان
والسنت والتمر حناء والطلح (الاكاسيا) ... فكان لها
نفس عجيب وظل رطيب * وأدهشتنى ذقة الهندسة فى
تخطيط البستان وتنسيقه ألوانا ، وأطوالا ، وأغصانا ...
فقلت :

— لعمري يا مولاتى ، ان لويس الرابع عشر لحقيق أن
يغار من هذه الاناقة ، وأن يطامن من زهوه بحدائق فرساي
التي ملأ الدنيا بها ضجة وفخرا ...

فالتفت الى الملكة وقد زوت ما بين عينيها وأغمضتهما
نصف اغماض ، وصاحت بى فى حدة :

— ومن لويس الرابع عشر اذا ذكر امنحتب الثالث ؟
فسكت ... ولكنها استدركت بعد قليل :

— ان الفارق بينهما فى المجد الدنيوى هائل ... ففرعون
كان سيد العالم غير منازع ... ولكن اذا أقمنا الميزان للخلال
وبواعث الاعمال وأهداف الرجال ، كان الرجلان فرسى
رهان : همهما الأبهة والمتعة المسرفة . فليس فى أحدهما

قدوة لشهم كريم .. وكلاهما أيضا أكل الحصرم ، وضرس
من بعده ينوه ، فدفعوا ثمن ما اقترف من ذنوب ... وى !
انظرى الى بعيد .. عن يسار ، تحت هذه العريشة . أما
ترين هذه القينة ترقص ؟

- بلى ! انها شبه عارية ...

- البسى منظارك هذا ، فانه من نعم زمانكم الجليلة، فانى
أعلم أن فى نظرك قصرا عن المدى البعيد .. وانظرى جيدا
ماذا ترين ؟

- أرى أمامها شيخا جالسا فى اعياء ، متهدل الجلد ،
متكئا على عصا طويلة ، وعليه برود ناعمة هفافة ...
ليت شعرى ! كيف يقدم شيخ أشرف على الموت على مثل
هذا المجنون ؟

فضحكت الملكة وقالت :

- عند أمثالكم الجواب : يموت الزمار ولا تسكن اصبعه
عن الحراك !

- وى ! أهذا فرعون مولاتى ؟

- أجل بنيتى ذاك أبى فرعون .. قد شاخ وهرم ولما
يبلغ الخمسين من عمره بعد ...

- لقد أراد الحياة عريضة ، وان لم يعشها طويلة ...

- عريضة بالملذات يا بنية ، وبالزهو الكاذب والانخداع
بملق رجال الحاشية « الأئماء » ! فقد استمرأ لذة العيش ،
وما لذة العيش الا للمجانين ! استمرأها فأقبل عليها اقبال
المنهوم ، لا يحلم بشئ وراء ذلك .. وأقدم على ما لم يقدم
عليه من بعده الا أتباع ابيقور من مترفى روما المنحلين .
فقد كانوا يأكلون حتى الشبع من أطباق شهية جدا ، ثم
يتقيأون ما أكلوا ، حتى يتسنى لهم الأكل مرة أخرى !

- وهل كان فرعون يفعل ذلك يا مولاتى ؟ هل كان يضع

ريش الطير فى حلقه حتى يستفرغ ما فى بطنه ؟
— كلا ! فان التشبيه مع الفارق . . . اذا نقلناه بحذافيره
من المائدة الى المخدع ، كان صحيحا مطابقا . . فالمعاجين
الموصوفة لتقوية الشهوة كانت هم هذا الفرعون ،
لا يستكثر فيها أغلى الاثمان للسحرة والاطباء ، والسحر
والطب قريب من قريب فى ذلك العهد ، لا يثق الناس
بطبيب لا يزعم أنه ساحر ، ولا بساحر لا يبرىء سحره من
داء . . فجنى ذلك الافراط عليه جناية كبرى ، اذ شاخ
قبل الاوان

— مولاتى . . يقولون فى زماننا ان عمر الجسم هو عمر
خلاياه وغدده ، لا بحسب السن ، ولكن بحسب القوة
والنشاط . . فعمر والدك الحيوى أضعاف عمره الحسابى . .
— صدقتم فى هذا التقدير . . . ويضاف الى ذلك أن
كثرة المخالطة بنساء كثيرات من رقيقات العفة لا تؤمن
عقبها فى الصحة . . فكم من داء نجم عن ذلك ، فورثه
الاولاد مظلومين . . .

هذا ما جناه أبى . .

وصممت الملكة لحظة كالمهمومة ، ثم قالت لى :
— أرايت الى تمثالى ذاك الذى أعجب به الناس وافتتنوا ؟
— أجل . . .
— انه تمثال رأسى . . . فلماذا لم أجعله تمثالا كاملا ؟ . .
فترددت قليلا ، ثم قلت محيرة :
— مولاتى ! لعل ذلك أليق بجلال الملك !
فصاحت بى :
— جواب لبق . . ولكنك وربى حمقاء اذا كنت تعتقدين
هذا حقا !

وجدت في وجهي كالمغضبة أو كالمتحدية لحظة ، ثم
كشفت يديها عن بطنها ، فاذا هو متهدل الى أسفل ، فلم
أملك نفسي أن أشيح بوجهي عنه . . .

فألقت الثوب المنحسر من يديها فانسدل الى الارض ،
وقالت ببطء :

- أرايت ؟ ذلك ما زهدني في تمثال كامل . . . وهو هو
الميراث الظالم الذي ورثته عن أبي المتهالك على اللذات
والشراب ، حتى تضخمت كبده ، واعتل طحاله ، وانتفخت
أمعأؤه . .

ورأيت الملكة تحتد، حتى خشيت من بواذر ذلك الغضب،
فأردت أن أسرى عنها بمجاملة هي الحق ، فقلت :

- مولاتي ! وهل تأسين على تمثال كامل ، وقد ضمن لك
ذلك التمثال النصفى اعجاب العالمين ؟ وهلا غفرت لأبيك
ميراث البطن المستور بالثياب ، نظير هذا الجيد الأتلع الذي
لا يضارعه في طوله الا جيد غزال يتغنى بجماله الشعراء ؟
- حماقة أخرى وضلالة جديدة من أوهام الناس الشائعة !
- وى !

- ان هذا الجيد الذي أعجب به الناس ميراث مرضى آخر
. . . ولكن الانسان جبل على مداراة العيب ، وعلى أن يجعل
من الضرورة فضيلة !

وأطرقت لحظة ، ثم قالت وقد وجدتنى صامتة لا أحيـر
كلاما :

- وأزيدك علما بذلك الميراث « الجميل » : أترين الى هذا
التاج الذي يزين رأس تمثالي، حتى صار علما على نفرتيتي؟
- نعم ! وانه والله لطريف رائع . . .

- ذلك فضيلة أخرى ندين بها للضرورة الملحة ! ان رأس
اخناتون أخى ورأسى أنا شبيهان في الاستطالة المرضية

المنفرة . . . ولكنه رجل ، وأنا امرأة لا قبل لى باعلان القبح
على الناس . . . فجعلت من ذلك القبح سبيلا الى الجمال ،
فكان هذا التاج البادى فى التمثال . . .
وأطرقت مرة أخرى مهمومة

بقية الحصاد

فلما طال اطراقها قلت لها :

— مولاتى ! لقد ذهب الماضى بخيره وشره ، ولا خير فى
الأسى على ما فات ، فما فات مات . . .
فضحكت وقالت :

— أو ما مات فات ، سيان ! صدقت ، ولكنها ذكريات
ميمضة حقا ، وبخاصة حين أذكر بكر اخوتى الذى فقدناه
يا فعا . . . فلو عاش ذلك الأخ الفتى تحتمس . . . ولكنه
مات فى ريعانه وهو فى منف يدبر أمر الثقافة ، ويشرف
عن كذب على تنظيم الجيش واقامة العماثر . . . مات أكثر الظن
ببركة ميراث أبى من أعقاب الملذات والاسراف فى المجون
والشراب . . . فلما أدرك الهرم أبى فى استواء العمر، ورأى
كهنة آمون يضمرون له الكيد ، وذكر كيف اعتلى العرش
بيدهم فى غير حقه ، خشى أن يفعلوها من بعده ، فأشرك
أخى امنحتب معه فى الحكم سنواته العشر الاخيرة . . . ثم
زوجنى منه ، ليكون مجلسه على العرش موطدا وبمأمن من
غدر كهنة آمون . . .

مات الملك

عاش الملك
بكر

صفحة طويت

وأمسكت الملكة بمعصمى بين اصبعيها الجميلتين وقالت :
- وأخيرا يا بنية حم القضاء ، وأدركت المنية أمنتب
الثالث ، فرعون مصر « الفخيم » ولم يجاوز الخمسين من
العمر ... ولكنه كان قد شاخ منذ أن بلغ الأربعين ، ولم
تغن عنه السطوة والجاه العريض ، ولم ينفع في رد ما خار
من قواه طب بابل وآشور، بعد أن عجز طب مصر عن ابرائه .
مات الأب فخلفه ابنه الشاب الذى سلخ في التدريب على
أعمال الملك عشر سنين ، منذ كان صبيا ، فصار الملك الفرد،
المصون الذات عن غدر الكهان بحكم توليه العرش فعلا ذلك
العقد الكامل من الزمن . وبذلك طويت صفحة ملك دام ثلث
قرن من الزمان ، لتفتح صفحة جديدة ، قدر لآخى وزوجى
ولى أن نكون قلمها ودواتها . . . وقدر لهذه الصفحة أن تكون
صفحة فذة في تاريخ مصر القديمة كله . . .
فقلت للملكة :

- ولكن هل تستطيع الصفحة الجديدة أن تتحرر من
جرائر الصفحة المطوية ، فلا تتأثر بما سطر فيها ثلث ذلك
القرن من الحكم الفاسد ؟

- هيهات يا بنية . . هيهات ! فالتاريخ سلسلة متصلة
الحلقات ، فإذا لم يصح أن التاريخ يتكرر ، فالذى لا شك فيه
أنه يتطور ، والتطور ظهور بعد كمون ، فما كان شرط لازم
لما سيكون . . .

- حنانيك مولاتى ! ذلك قول أولى به شيخ كابن خلدون !
وانما مبلغ ما أتوق الى علمه عن صفحة فرعون الذى قضى ،

هو مقدار ما أثرت به في صفحة فرعون الجديد
- ان الصفحة القديمة مشحونة بسخط جميع الناس .
فمن عجائب الامور أن عصور الانحلال يشيع السخط فيها
بين جميع الناس ، مع أن جميع الناس مشاركون في الانحلال
العام وفي أسباب ما يسخطهم . . فكل واحد من الساخطين
يسخط على جانب العلة الذي لا ينجم عن نفسه ، أو هو
يعلم مقدار مشاركته في الفساد ولكنه يتعلل بأن الجميع قد
فسدوا فلا سبيل أمامه للصالح وحده . . . ونظرة الى
رجل سكير عريذ حين ينتشى ، تطلعنا عليه باكيا في بعض
الاحيان حزنا على سوء حاله وسقوط مروءته . . فهو يعلم
أنه فاسق وأنه ساقط المروءة ، ولكنه عاجز عن اصلاح
نفسه . كذلك المجتمع الذي يسرى فيه الفساد حتى يدمنه ،
نرى أفراد عارفين مبلغ فسادهم ، ولكنهم عاجزون عن
التوبة أو زاهدون فيها لغلبة الشهوة عليهم . . . وكذلك
كان شعب مصر في أخريات حكم أبى . فالمحافظون على القديم
ساخطون ، وأصحاب آمون ساخطون ، وأهل النجدة على
قلتهم ساخطون ، وأهل الولايات يتربصون الفرص للانتقاض ،
والجيش متدمر من هذه الميوعة الفاشية ، والشعب ساخط
لهذا الفقر الذي يجثم على صدره ، ودعاة التحرر الناجم عن
اتساع الآفاق وحرية الفكر ساخطون لبقاء آمون مخيما
بظله على عقول الناس . . . فكيف تكتب صفحة جديدة بعد
هذه الصفحة دون عناء ، ودون تعثر؟ فمن ذا الذي يستطيع
رفع كل هذا السخط المتناقض البواعث والاهداف ؟

- ذلك ما أرانى مشوقة الى معرفته على حقيقته

- سأريك اياه ، وسأريك اخناتون ، امنحتب الرابع ،
وسأريك نفسى في جواره رأى العين حين مات أبوه ، وصار
اليه الأمر كله . . .

- وكيف تفعلين ذلك ؟

— أغمضى عينيك ...

وأغمضت عيني ، فمسحت جبته بيديها ، فأحسست
أنى أغفيت برهة ، ثم صحت فاذا أنا فى بهو ضخم ، فيه
عمد رشيقة منقوشة ، واذا شىء يهمس فى أذنى :

— هذا قصر فرعون الراحل ، عن يمين النيل ، فى حضن
الجبال النحاسية على حدود وادى العدم . انه قصره الذى
بناه للملكة تى ، وجعل فيه بركة كبرى أسماها « مورد
الذات » ... امضى

ومشيت قدما كالنائمة .. فاذا الصوت يهيب بى :

— يسارا .. يسارا .. من هذا الباب الذى يقف به
الحارس . لا تترددى . انه لا يراك ، ولا يسمعك . ادخلى ...
ودخلت ...

تركة فرعون ..

قاعة كبيرة فى صدرها ايوان فخم ومن حول الايوان —
على مبعدة — نفر من الناس فى ثياب الخاصة ، وان بدوا فيها
كالغرباء عنها ! وعلى الايوان رجل حليق الرأس عاريه ، يبدو
رأسه مستطيلا استطالة شاذة ، ومن تحت جبهته الضيقة
عينان وأنف طويل كأنف الحمار ، وشفة عالية بارزة ،
وعنق طويل ، وبطن متهدل ... والى جانبه تلك الملكة التى
كانت مرشدتى فى ربوع طيبة منذ قليل . ومن حولهما طفلتان
صغيرتان ، احدهما تعبت بذقن أبيها ، والاخرى تجذبه من
أذنه !

هذا اذن امنحبت الرابع ، الذى سيعرفه العالم بعد باسم
اخناتون .. وهذه زوجته وبنات من بناته ، وهؤلاء خاصته
الاقربون مطأطئين رؤوسهم ليجسرون على النظر اليه ، على
تقليد البلاط الفرعونى

أما الملك فلم تكن عليه شارات الملك ، ولم يكن شامخ



الملك « اخناتون » زوج نفرتيتى

الرأس مقطب الجبين فى سمت التوقر .. بل كان مطرقا
حزينا ..

ومدت الملكة يدها فداعبت يده وربت عليها ، فرفع اليها
عينيه . وتعلقت عيناي بهاتين العينين : انهما عينان فذتان .
أجل أنهما لا يمكن أن توصفا بالجمال الخارق ، ولكن شيئا
فيهما يستوقف النظر: فكأنهما ليستا عيني بشر من أهل هذا
العالم ، فليس فى عيون أهل هذا العالم كل هذا القدر من
الاحلام البعيدة، والآفاق الرحيبة... انهما عينا حالم يتسمع
أصواتا تأتي من وراء الأفق ، من عالم غريب غير منظور ،
وغير مسموع ، ولكنه يسمعها سماع اليقين ، ولا يحس
لغيرها وقعا فى أذنيه الكبيرتين ...

ولكن أحلامه فى هذه اللحظة كانت حزينة ، أسيفة ...
وهمست الملكة فى أذن زوجها ، الذى انستنى عيناه كل
هذا القبح الذى حشد فى سحنته الغريبة ، قائلة برفق
ودعة :

— فيم الحزن والاكتئاب يا امنحتب ؟ هؤلاء المخلصون من
رجالك الذين اصطفيتهم بنفسك من حولك ، يهنئونك
بالسيادة على العالم .. ألا تهش لهم ؟ ..
وصمت لحظة ، ونظره الزائغ لا يزال متعلقا بذلك العالم
غير المنظور ثم قال فى صوت بطيء المقاطع :
— السيادة ؟ أترينها شيئا يسر القلب ؟
— كيف لا ؟!

— بل كيف أجل ؟! انها عبء .. انها جد الحياة المر لا
زخرفها المانع . ألا أن نعيد صفحة طويت يا أختاه ...
وربت على كتفها تربيت المحزون المدعن للواقع البغيض ...
وفى هذه اللحظة دخل رجل بدين ، فالقى بنفسه على
الأرض بين قدمى فرعون ، وجعل يهلل بالدعاء ، فالتفت اليه

فرعون . . . ثم أذن له فى الكلام ، فقال الرجل البدين المزخرف الثياب بالقلائد والاساور :

— ليتهلل قلب مولاي فقد دانت له الدنيا وقربت اليه قطوف المسرات . . . وتحت يدي عبده فى غرفات قصوره الملكية ست عشرة زوجة من بنات الملوك والاقبال ، واثنى عشرة مائة من السرارى الحسان ، منهن سبع وخمسون أبكارا لم يمسهن بشر ، جن فى البريد الاخير لمولاي الراحل ، وكن تحت التدريب والتهذيب فى حجرات القصر . . .

فداعبت شفتى فرعون ابتسامة ، والتفت الى الملكة فتبادلا نظرة سريعة ضاحكة ، ثم توجه الى امين القصر بهذا السؤال :

— كل هذا العدد الضخم ؟ . انها حق لمشكلة . . .

فأسرع الامين يقول جادا :

— عاش مولاي الى آخر الدهر ، ممتعا بالصحة والجمال والقوة . . . ليست فى الامر مشكلة ، فاذا أذن لعبده ملك يمينه تكلم . . .

— تكلم . .

— هناك أكثر من حل أو نهج لسياسة الحريم . فاذا شاء مولاي اتبعنا نظام الطول ، الاطول فالاطول . أو نظام اللون السمراء فالبيضاء . أو نظام القرعة ، أيها خرجت قرعتها نالت الشرف العظيم بالاضطجاع تحت قدمى مولانا ليومه أو ليلته . . .

فلمعت عينا فرعون الشباب ، حتى أشرفت أساريره بهذا الابتسام ، والتفت الى الملكة مازحا :

— نفرتيتى . . ما ترين يا أختاه فى هذا الذى يعرضه علينا أمير الحريم ؟ أى هذه المناهج التى تنم عن راحة عقل وسعة علم ترينه أليق بالاتباع فى ملكنا الجديد ؟ . .

فبان فى وجه الامين ، وفى وجوه سائر الحاضرين الدهش

العظيم لتوجه الملك بهذا السؤال الى الملكة بالذات .. وفاتهم
ما فى سؤاله من تهكم لاذع
وابتسمت الملكة وقالت :

— انها لحيرة عظيمة يا مولاي وشقيقى ... واحسبك
وحدك المسئول أن تجد لك منها مخرجا ...
فهز فرعون كتفيه والتفت الى الامين، وقد تلاشى الابتسام
من محياه وبدا عليه الجد الصارم ، ثم سأله :

— ليس المخرج هو الذى يحيرنى الحيرة الكبرى .. وانما
هو المدخل الى هذا كله ! فما الذى خلق هذا الاشكال ، ومن
أين لى هذا كله يا أمين القصر ؟ .. ولماذا يكون لى كل هذا
الجيش من النساء ؟

فصاح الرجل دون أن يرفع رأسه ، وهو يغالب الحدة
التي تجيش فى صدره :

— مولاي ! أطالت الآلهة حياتك يا نور رع حور اختى ..
انها تركة والدك العظيم . فقد كان والدك عظيما جدا يامولاي .
كان له كل هذا ، وكان يعلم أن له أكثر من هذا ، فالعالم كله
رهن مشيئة فرعون ابن آمون يا مولاي ... والآن قد
صارت كل هذه التركة الجميلة ، أجمل تركة فى الدنيا ، الى
مولاي ابن مولاي ، سيد العالم ...

ونطح الرجل الأرض برأسه علامة الاجلال ...

وهز فرعون رأسه مرة أخرى ، ثم قام يتمشى فى الحجرة
طولا وعرضا . والكل كأن على رؤوسهم الطير ... وان
خالسوه النظر فى عجب من هذا التمشى الذى لم يعهد فى
حركات الملوك ، بل الآلهة من فراعين مصر ..

وعلى حين غرة ، اذ هو عند الايوان ، ألقى بنفسه فوقه
بجانب الملكة والاميرتين ، ثم تصلبت أطرافه ، وتصبب
عرقا !

وصاحت الملكة :

— انه الداء الملكى ! عاوده الصرع ...

وصاح واحد من الحاضرين تبدو عليه الطيبة وبساطة
الاصل :

— انه مس الآلهة حين تتصل بينهم وبينه النجوى ...
وأشارت الملكة فانصرف الجميع ، عدا هذا المتكلم الذى
قالت له الملكة فى لطف :

— ابق أنت يا مريـع .. واقترب من مولاك
فجعل يجلب له الهواء بمروحة فى يده ، وأخذت الملكة
تمسح عن جبينه العرق المتصبب ، حتى أفق من غشيته
بعد لحظات .. فجعل يدور بعينيه فى أرجاء القاعة، ويتفحص
وجه الملكة والاميرتين ومريـع كأنه يراهم لأول مرة ، ثم تهلل
وجهه فى اعياء وقال :

— هذا أنت يا مريـع ؟

— لبيك مولاي ...

— لقد غامت نفسى وثقل عليها هذا الميراث « الجميل »
كما يسمونه مخلصين . ولكنى مهتم مغموم لهذا الميراث الذى
يذكرنى مبلغ ما أمامى من أعمال جسام ، لست واثقا من
مقدرتى عليها وقد استشرت وأشربتها نفوس الناس

— مولاي ! ان سلطانك لا يعلوه سلطان ، فاذا لم تفعلها
أنت فمن ذا يفعلها ؟ من للحق والعدل والخير والفضيلة
والمحبة ورفع المظالم يا مولاي اذا لم تكن أنت وليها وأمينها
وسر الآله معك ؟

— اجل ، لقد غامت نفسى ففتحت لى صحائف الاسرار ،
ولقيت فى طواياها ما رد على القوة واليقين والاقتدار ..
ادع أمين القصر ...

ودخل الامين ، فخر على الارض أمام مولاه .. فقال فرعون
بصوت حازم على هدوئه الشديد :

- أمين القصر .. اسمع ما يأمر به مولاك فرعون مصر ..
- المجد لفرعون سيد العالم وروح الاله آمون ...
- هذا الحريم لا حاجة لى به ...
- مولاي ! أموتا يمتن أم ...
- اسمع ! لاموت لأحد .. انما أريد الحياة للجميع !
- فرعون هو الحياة والصحة والبأس !..
- اصغ لى يا أمين القصر ... لترتب لهذا الحريم حياة طيبة ، ولتكن له منازل خاصة ، ولكنه لا يسكن بعد اليوم فى مساكن فرعون ...
- فرعون هو الحياة والصحة والبأس !.. أمر فرعون نافذ ...
- وانسحب أمين القصر ، فهمس الصوت الخفى فى أذنى :
- اتبعيه لحظة ريثما يختلى برجاله المقربين ، فان ذلك الامين قد تلقى الآن حكم الاعدام على نفوذه الاعلى ، لانه أمين الشهوات ، والشهوات كانت هى مقاد فرعون السابق الذى ليس بعده مقاد ...
- وتبعته الى ديوانه غير بعيد ...

غضبة ((الأمناء))

وفى الديوان رأيت أمين القصر الذى كان منذ لحظة منبسطا على الارض ببطنه وشحمه ، وقد تطاير الشرر من حدقتيه ونفرت العروق بين عينيه ، وعنده رهط من كبار القوم عليهم شارات الحكم ، وأشعرت أن هؤلاء من أمناء البلاط ، فمنهم أمين الخزارف والكساوى ، ومنهم أمين الشراب والمائدة ، ومنهم أمين الحلوى والجواهر .. وكلهم غاضب ثائر مع أمين الحرم ، الذى كان يرغى ويزبد ويهدر كالفحل وما هو من الفحول !..

— أهذا فرعون مصر الآن ، أهذه مهابة الفراعنة وعزة الملوك
الامجاد ؟ أى هيبة لفرعون وأى أبهة بلا حريم ؟ أملك هو
أم درويش من الدراويش ؟

وصاح آخر ، أشعرت أنه أمير المراسم والحفلات
والتشريفات :

— وماذا كنا ننتظر غير هذا وما هو شر منه ، من رجل
رفع السوقة الى مقام الخاصة ، وجعلهم المقربين اليه ..
جمعهم من مجالس العامة وصحون المعابد ، معابد الشمس ،
ومن التسكع والفراغ والصعلكة ، فرقى بهم مالا يرقى النبلاء
العريقون كابران كابر ؟ ..

— هذا مريع مثلاً ... طالب علم فى معبد ، من عامة
العامة ...

— و « ماى » .. ذلك الصعلوك الذى كان يتسول
ليعيش ؟

— ان العرش العتيد ، عرش آمون وضحى الشمس ، بات
مهتدا بالزوال مذ آل الى هذا الرجل التافه ، حلف
الاوراق وقراءة الاوراد والمزامير ...

— ليشبهن أحد دراويش رعاة الغنم .. أولئك العبرانيين
الانجاس

— أهى النهاية اذن ؟ ماذا يقول الناس ؟ وكيف يحترمون
رجلا لا يريد النساء ، ولا الطيب ، ولا يفرق من حوله فى
كرمه ، ولا يخشى عدوه سيفه ؟ وأى نفوذ يبقى لنا ؟ وكيف
تقوم الدولة بلا نفوذ ، وكيف يلمع التاج بلا زهو ولا أبهة ،
وكيف يكون الصولجان مجردا من الصولة والسطوة ؟
— انه الليل ، ولكل ليل آخر .. فاصبروا وتربصوا ...

أصحاب النجوى

وهتف بى ذلك الهاتف المجهول :

— والآن الى بيت مريع ، صفى فرعون ، الذى رفعه
من الحضيض الى الذروة بما تنسمه فيه من بوادر الخير
والاستقامة ..

وسرت كائننى فى حلم ، حتى بلغت بيتا غير بعيد من القصر ،
عليه مسحة النعمة الطارئة ، زخرفا وأثاثا . وفى بهوه جلس
مريع ، وشاب آخر سمح الوجه ، أشعرت أنه «ماى» . . .
واذا على وجه الاثنين فرحة لا حد لها :
وقال مريع :

— لقد آن الاوان أخيرا أن ينتهى كل هذا الفساد الذى
ضاق به الناس حتى أوشكوا أن يخرجوا عن طورهم . . فما
أسعدنا أن تغدو الدولة الى يد أمينة متعلقة بالحق . . .
— وهل جلسنا الى فرعون يوما الا كان حديثه عن «الحق»
الذى ضاع فى غمار من الاكاذيب والمخاتلات والتضليل ؟ . .
ما أسعد فرعون اليوم يا مريع . . .

— جانبت الصواب يا «ماى» . فقد لقيتہ اليوم وقد فرغ
من تشييع أبيه الى مقره الخالد . . فاذا حيرة واهتمام يكاد
يغلبه على همته . . .

— وى ! انى قست فرحه على فرحى ، فحسبته كاد يخرج
من جلده . وما فرحى الا لجاه لا يبلغ من جاهه ما تبلغه
الحبة من الجبل . . .

— ولكنك نسيت شيئا . . نسيت يا «ماى» أننا نصير
الى جاه بعد فاقة ، والى ذكر بعد أهمال . أما هو فليس شىء
من ذلك عليه بجديد . فهو حقيق ألا يزدهى بالسلطان ،
وانما هو حقيق بالشعور بوطأة السلطان على كاهله . . وانه
لعمرى لكثير . أم تراك نسيت يا «ماى» خروجه معنا
متنكرا نجوس القرى ونشهد مجالس الكادحين اذا جلسوا
للقيلولة فى ظل أشجار الجميز ، وكيف كان قلبه يتنزى
وهو يرى مبلغ شقاء هؤلاء الناس عن كذب ؟ . .

- أجل أذكر ولا أنسى ...
- فكيف اذن تحسبه يفرح بالسلطان ؟
- لانه الآن قادر على ازالة كل ما لا يرضاه ...
- لقد شط بك الوهم !!
- وى ! وفيم الحزن اليوم ؟ ان الحزن فيما مضى كان مفهوما لانه غير متفرد بالسلطان ، ولانه يريد ولا يستطيع ما يريد . أما اليوم فعلام الحزن، وهو قدير أن يأمر فلا يرد؟
- بل انه اليوم أليق بالهم والغم .. ففيما مضى كان أمامه الامل أن يتغير الحال ، وأما اليوم فلا أمل وراء قدرته ..
- فاذا لم يستطع كانت تلك قاصمة الظهر التى لا يقال لها عثار .. فهو لهذا مشفق من هول التبعة، عالم بمسئوليته الكبرى فأطرق « ماى » لحظة ، ثم أشرقت أساريره وقال :
- لا أدرى ... ولكنى على كل حال فرح مستبشر .
- وبينى وبينك ، أراه متعلقا بما لا ينال ، فلماذا لا يتمتع من الدنيا بما قيضته له الايام ؟ ..
- ها !.. لقد سرح حريم أبيه ...
- ماذا تقول ؟ أيسرح أفرح وأمتع حريم فى العالم ؟
- ثم ضرب على فخذ مريع ، وضحك ضحكة تمتزج فيها المرارة بالسخرية وقال :
- اننا سيئو الحظ يا صاحبى ... لو أن الذى أحبنا واصطفانا كان فرعون القديم ؟ أو لو أن لى أنا هذا الحريم ؟
- اسكت « يا ماى » .. اسكت . أتكفر بالنعمة ..؟
- أبدا .. انى أذكرها دوما ، ولكنى أذكر أيضا ذلك المثل الذى يقول : « ان الاقراط تعطى دائما لمن ليست لهم آذان »
- وعندئذ هتف الهاتف الخفى فى أذنى :
- دعى حديث الاقراط والآذان ، وهيا الى القصر مرة أخرى

النور الجديد

•• عود على بدء ••

وألفيت نفسي على درج القصر العريض المفضى الى
البستان ، وأمامى الملكة نفرتيتى .. فحرت فى بادىء الامر
أهى الروح المبعوث ، أم هى الملكة التى رأيتها بجوار
زوجها منذ حين ؟ ولكنها حسمت الحيرة بابتسامة مشرقة
وجهتها الى ، فعلمت أنها الروح المبعوث لا الجسد الفانى •
ووضعت يدها على كتفى برفق وهى تسألنى :
- أرايت ؟ ••

- رأيت يا مولاتى •• وانى لمشفقة من ذلك العبء الراجح
الذى أثقل كاهلك وكاهل زوجك ، فانها الظلمات المطبقة
والهاوية التى لا يعرف لها قرار ، والمتاهة التى لا مخرج
منها لمن تردى فيها •••

- هو ذاك •• ولكن بذرة الأمل فى النفوس الكبار
لا تدع لليأس الى سريرة أصحابها سبيلا ، وان بعدت الشقة
وقامت دون الغاية عراقيل وأهوال ••• ولئن قيل فى بعض
الامثال : « قد يخرج الطالح من ظهر الصالح » . أو قيل فى
كتاب كريم : ان الميت قد يخرج من الحى •• فان الصالح قد
يخرج كذلك من ظهر الطالح ، وقد يخرج الحى من الميت ••
وكذلك خرج امنحبت الرابع من ظهر امنحبت الثالث، وولد
عبد المظهر والابهة كاهن الحق والعدل والمحبة •••

- حكمة الله وسنته فى خلقه •••

- أجل ! ولكن ويح نفسى على انسانية يسىء اليها المسىء
ظالما ، فيعيش ما عاش منعما ، ويمضى سالما غانما • حتى

إذا أراد أن يحسن إليها المحسن ، خذلوه وقتلوه أو عذبوه ،
ثم لا يسلم عرضه وذكره بعد موته من قالة السوء .. فلا
هو انتفع بالعيش ، ولا نعيم بحسن الاحدوثة بعد الموت ..
فهو غارم في الحياتين ، والفاجر الفاسق غانم في الآخرة
والأولى .. ولا حول ولا قوة الا بالله ...

— أهو العتب على الأيام ، ولا جدوى من العتاب ؟

— كلا ! ليس العتب على أبناء من غبر من الدهر ، وانما
العتب على بعض من خلفوا السلف على تراثهم ، فلم يقسطوا
.. والله يحب المقسطين .. فقد تلمسوا للرجل الزاهد
العف المتجرد لتأييد الحق أوهاما من الارجيف الكذاب ،
ورموه بأقذع السباب ، في غير موضع ولا مبرر ، الا
استغراب بعض من خلق الله لمن ليس من معدنهم أو على
جبلتهم

— على رسلك مولاتى ! فالجروح قصاص ! وقد أعطيت
الفرصة بهذا البعث لكى تميطى اللثام عما التبس واستغلق
على أفهام فئة من الناس من أمر زوجك العظيم ... فأفيض ،
ولئن حصص الحق فانه واجد من يناضل دونه ، والله
ينصر من ينصره ولو بعد حين ..

العلة الأولى

فأطبقت الملكة شفيتها اطباقة الكظيم ، وأطرقت برهة ثم
قالت :

— بماذا أجيبك ؟ فانى ان أنكرت قولك كفرت بالحق الذى
دعا اليه اخناتون زوجى ، وكفرت بالواحد الأحد الذى جعل
له الصفات الحسنى وآلاء الخير واليمن جميعا ...
— أتقولين الواحد الأحد ؟ أتقولين آلاء الخير واليمن والصفات
الحسنى ؟

— أجل .. كذلك دعا اخناتون الى الله ، وكذلك عبد

اخذتوني الحق جل جلاله ، وكذلك علمنا ان الله خلق الكون ،
وأحب العالم ...

- مرحى ! مرحى ! انى لفى عجب لا ينتهى من عجب ..

- اذا عرف السبب بطل العجب .. ونعرف السبب اذا
بدأنا بالبداية ، وتحرينا مراحلها ومراقبها الى أقصى النهاية .
فليست تعرف الغايات القصوى الا اذا عرفت على حقيقتها
عللها الأولى ، لنرى كيف أشرقت الانوار من أعماق الهاوية

- ذلك والله لو لم أسمع من مولاتى ، ولو أعلم أن مولاتى
أعرق تاريخا وأقدم سابقة ، لقلت انه كلام حكيم اليونان
ومعلمها الاول « أرسطو » !

- ولم لا يكون من كلامى لا من كلام حكيم اليونان ذاك ؟

- انه الفلسفة الاولى ، علم العلل الأولى والغايات
القصوى ، ابتدعتها اليونان ولم نعهدها فى المأثور عن
الفراعين ...

- الآن السقيا فى بلاد المشرق وربوع سوريا تعتمد على
المطر ، ولا تعتمد عليه فى كنانة الله التى يرويها النيل ، يقال
أن مصر لا تعرف الزراعة ، وأن فلسطين وسوريا وحدهما
تعرفان البذر والحصاد ؟ ..

- كلا وربى !

- كذلك ما تسمينها الحكمة الأولى ، علم العلل الأولى
والغايات القصوى ، لم تعهد فى مصر لان الحاجة اليها مكفية
بما يتيحها الدين المصرى القديم من تفسير وتعليم ، فهو
كالنيل لا يرد ظمئا ولا يحيل على ماء الغمام امرأ من بنيه .
أما اليونان ، فليس عندها ذلك المورد الزاخر المسمى بالدين
المفسر المستقر المهيمن ، فاحتاجت النفوس الى التماس
ريها من مورد آخر . ولعلك لا تجهلين أن عين شمس ومدينة
الشمس ، التى تسكنينها فى هذا الزمان ، عرفت حباؤها

وقع خطي أفلاطون أستاذ أرسطو ، وخير من تفلسف
على الاطلاق في الأولين والآخرين . . . كما عرفت أرض
الكنانة من قبله « طاليس » دارجا فوقها يتلقى فتات العلم
على كهان الشمس . . .

موطن الداء

فقلت للملكة :

— آمنت يا مولاتي بالله ، وبأن الحكمة نبتت في وادي
النيل . . وان فرحي بهذا اليقين — علم الله — لفرح عظيم . .
فابتسمت الملكة متلطفة وقالت :

— وكيف لا ؟ و«صوفي» بلغة اليونان هي «الحكمة» ؟
فلست يا ابنة الصعيد بالبذرة المجلوبة الى ديار آمون من
بلاد الزيت والزيتون ! .

— حياك الله يا مولاتي . . . فهلا نبأتني عن العلة الأولى
عند اخناتون ؟

— نعم . . ولا ينبئك مثل خبير ، فقد فطن اخناتون الى
تشعب الداء وتباين أعراضه، ولكنه فطن أيضا الى أن موطن
ذلك الداء لا بد واحد . . وان علاج الاعراض المتفرقة حمق
وجهل وتخط لا يفضى الى طائل . . .

— والله يا مولاتي ، وما بي حاجة الى الايمان المغلظة ، ان
هذا كلام لو كتب بالجواهر لكان دون حقه ، ولو عرفه أهل
هذا الزمان لو فرت الانسانية على نفسها محاولات طائشة
ما أكثرها . . وكأني بذلك الوصف لمناهج علاج الجماعات
قد خرج لتوه على الناس ، وليس أثرا باقيا من ألوف السنين
— ويحك يا بنية ! هل نسيت سريعا قول شاعرك الضيرير
البصير :

وذهبوا والبلاء باق ولم يزل داؤها العياء
حكم جرى للمليك فينا ونحن في الاصل أغبياء !

— عفوك ! ولكن حب الانسان لنفسه ينسيه أو يلهيه
عما يعلم من مخازيه ..

— لقد بحث اخناتون عن موطن الداء ، وعلة العلل في
انحلال الناس خلقا ، فانحلال الخلق هو أصل كل انحلال
وتصدع في مقومات الجماعة حتى المادية والاقتصادية منها .
فالناس يفترى قويمهم على ضعيفهم اذا فسدوا ، وينصف قويمهم
اذا صلحوا . . . ولن يعدلوا بغير ذلك من التنظيمات والحدود
والقيود ، الا أن يزول التفاوت في القوى كافة . . . وتفاوت
القوة هو سر الوجود ، وزواله لغرض الاصلاح مثله كمثل
وقف سريان الدم في جسم انسان توسلنا الى كف الداء عن
الجريان فيه !

— كلام لاريب عندي فيه ، وان أقام على الريب آخرون . .
— لا علينا ، فلن نهدي من أحبينا ، والله يهدي من
يشاء . . . لقد بحث اخناتون عن العلل في فساد
النفوس ، فوجدها في ضياع الثقة بقيم عليا للحياة تتعدى
اللذة العاجلة المحصورة في أضيق نطاق يمس الفرد من
الناس . فكأنما الحياة خلصة مختلس ، أيهم بدد منها
ما استطاع ونهب وأضاع فهو الرابع المجلى . . . فلا يبقى
أحد من الناس على شيء ، ولا يتورع عن شيء ، لانه لا يرى
شيئا وراء الغنم العاجل ومتاع الساعة الموقوت

الصرح المنهار

فقلت في دهشة :

— والدين مولاتي ، دين مصر القديم ؟ أما قلت لي منذ
برهة انه كالنيل لا يرد ظامئا ولا يحيل أحدا من بنيه وتابعيه
على نبع للحكمة سواه ؟
— بلى ! وانه كذلك . .

— اذن ماذا دهى الناس ؟ أو ماذا دهى الدين ؟

— وهما معا ما دهى فلسفة اليونان بعد نهضتها الأولى،
فذهب الناس مذاهب السفسطة والانحلال والتهالك على
الذات ... فذلك طور طبيعى يتلو طور النهوض فى الأمم ،
ولاسيما فى أعقاب الحروب المدمرة ، وفى عصور الرخاء
والترف .. فالامبراطورية المصرية الواسعة أتاحت للناس
أن يكشفوا أن ثمة آلهة غير آلهتهم ، فتزعزع يقينهم فى
سلطانها الشامل .. وكثر المال فسيطرت اللذة عليهم ،
وانصرف كهان آمون أنفسهم الى الاستكثار من الاموال
والنفائس ... فانهار صرح ايمان الناس بدينهم القديم ،
وعبدوا الصنم الجديد ، صنم العصر ، المصوغ من الذهب
الرنان ! واذ ضاع الايمان بالدين ، ضاعت قيم الحياة العليا
التي تتعدى الوجود الفردى المحدود الى خدمة النوع أو
خدمة القومية ..

— ألا عاصم لهم غير الدين ؟

— انهم لم يعرفوا من قبل شيئا ينتظم فضائل الحياة
ومسائلها العليا غير الدين، لهذا انهار بانهيائه صرح الفضائل
الاجتماعية والخلقية جميعا ، الا فئة قليلة لم تبلغها الآفة
الجديدة ، هى أدنى الطبقة الوسطى ... فالعلة كنها ناجمة
عن خمود جذوة الروحانية وطغيان المادية حتى غشت على
بصائر الناس

النور الجديد

« فكان حقا اذن على من يلتمس نورا للناس وسط هذا
الظلام الدامس ، أن يلتمسه من ذلك النبع الخالد ، نبع
الروح ، فيدفع بها شيطان المادية حتى يصصره . وليكونن
ذلك النور باثقا من المصدر الاصيل ، لا تشوبه شائبة مما
أودى بأنوار الدين القديم »

— مزيدا من النور يا مولاتى فى أمر هذا النور !

— ذلك لك : ان الاديان القديمة كانت زلفى الى مصدر الحياة عند العامة ، وكانت عند الخاصة تجسيما لقوى ذلك المصدر المتعددة ، قياسا على قوى البشر التى يعهدونها فى أنفسهم ، فقد تصوروا الفطرة الفاطرة على صورتهم

— تصور معهود فى جميع الشعوب ، وأخشى أن أقول فى جميع العهود .. فالناس فيما يتصورون عبيد ما ألفوا

— بذلك قامت أساطير الالهة المتعددة ، وتناسى الناس رموزها مع تقادم العهد، فلما اتسعت الآفاق لم تعد تقنعهم تلك الصور ، كما يكبر الفتى فلا تقنعه الرشفة بعد الرشفة من ثدى أمه ، على بر ذلك الثدى به ، ويطلب ما يملأه بقواطعه وأسنانه الحداد .. ثم فتنتهم الدنيا فلم يجدوا عاصما لهم منها بسند باق من دين متين .. ففطن اخناتون الى وجوب قيام ذلك الدين المتين ، باثقا من مصدر الحياة الأصيل غير مموه بالتجسيم والتشبيه ، بحيث يكون موضوع ذلك الدين بمأمن من الحدود ، والعجز ، والنقص . فلا بد أن يتوفر له الشمول الذى يمتنع معه الشرك ، لأن الشرك حد ونقص ، والنقص لا يتفق وطبيعة الكمال . وكذلك أقام اخناتون صرح العقيدة على التوحيد الذى لا يعرف الشرك ، ولا يأتية الشك ، وعلى التنزيه الذى لا يعتريه تشبيه ولا تمويه ...

والشمس وضحاها ..

فقلت فى عجب يكاد يشبه الانكار :

— مولاتى ، والشمس وضحاها ؟ أذلك أيضا من التنزيه الذى لا يعتريه تشبيه ؟ أليس « أتون » هو اله الشمس القديم ؟ . أليس هو ذلك القرص الذى ترسم له أشعة تنتهى بأباد يتعبد أمامها اخناتون وتتعبدون ؟

— ليس أتون هو قرص الشمس يا بنية ، على سنة أهل

« ايون » أو عين شمس أو هليوبوليس - فى لغة اليونان - كلا ، وانما هو « الحرارة التى وراء قرص الشمس » . ولو كانت لاختاتون لغة عصر كم لقال : « انه القوة أو الطاقة التى تبعث النور فى قرص الشمس » . فقرص الشمس ليس هو الله ، ولكنه نافذة الله يطل منها على العالم ! وليس وقوف اختاتون أمام قرص الشمس عبادة وزلفى ، وانما هو تحية

- تحية مربية !! -

- ولماذا ؟ أتعرفين سنة النصارى فى التعبد ؟ -

- أخالنى أعرفها ... -

- أيريبك منهم أنهم يقفون أمام صليب من خشب يتخذونه قبلة لهم ورمزا لدينهم ؟ أيخالك لهذا شك فى تنزيههم الله عن التشبيه ؟

- وهل ذلك كذلك ؟

- أجل .. وهل تعرفين حيرة الناس أيان يولوا وجوههم للعبادة ؟ لقد قيل لهم أن ولوا وجوهكم قبلة هى البيت الحرام الذى رفع قواعده اسماعيل بن ابراهيم ... فهل فى ذلك ما يريب أو يحمل على الشك فى تنزيه الله عن الحلول فى مكان دون مكان ؟

- كلا ... -

- اذن لا يرينك من اختاتون أن يستقبل الشمس ، لانها أظهر نعم الله التى يتجلى بها على الخلق .. وانه ليسمى آتون لهذا « رب قرص الشمس » أو « مولى قرص الشمس » ، اشعارا بأنه شئ وراء ذلك الظاهر المنير

الخالق والخلق

فقلت وكأن بى شيئا من ذلك الذى قالت :

- انها فيما أحسب أول دعوة لوحدانية الله بين الناس ،

وأول تنزيه له عن الشريك والشبيه .. من غير طريق الكتب المنزلة والوحي القدسي ..

— والبصائر يا بنية أليست من الله ؟ والعقول يا بنية أليست من الله ؟ . أفى الله شك حتى يكون عرفانه عجباً يؤخذ له الناس ؟ . ان الجهل به ، على بيان جلاله ، هو الأحرى أن يقابل بالعجب والانكار !

— صدقت مولاتى .. فهذا ارسطو يقول بالمحرك الاول الذى يتحرك كل شيء فى الكون حبا له وعشقا لكماله .. وهو عقل خالص ليس كمثله شيء

— ويك ! أين هذا من آتون ؟ ان اله ارسطو صاحبك لا يشتغل بأمر الكون ، ولا يعنيه منه شيء ، ولا يفعل ولا يريد ، ولا يحب ولا يهب . فهو أقرب الى الانفعال بالكون منه الى الفعل فيه .. فهو معشوق من العالم ، وليس له بعد ذلك بالعالم صلة .. واله اليهود جبار ذو انتقام ، رب شعب واله قبيل .. العالم متوجس من غضبه أن يثور فلا يبقى ولا يذر . أما اله أخناتون فهو برغم سبقه فى التاريخ على كل ذلك ردحا طويلا ، اله محب للعالم ، منعم ، رحيم ، حلیم ، بر بالخلق جميعا — من انسان وبهيمة ونابتة — بر الأب المحب ببنيه الصغار ، حتى المروج منهم والعاق ... فهو أول دين قبل المسيحية بألف سنة ونصف ألف نادى على رؤوس الاشهاد ان « الله محبة » وانه « هكذا أحب الله العالم ... » وانه كذلك ولا مرأى سما بالتصوف وسبحات الروح الى أفق لم يبلغه قبله أحد ، ولم يلحقه فيه لاحق الا قول ناسك من متصوفى الهند بعد ذلك بقرون طويلة ، هو حكيمهم سنقره فى منتصف المدة بين اخناتون والمسيح ، أى فى القرن الثامن قبل الميلاد ..

وسكتت الملكة فترة قصيرة ، فقلت أستحثها :

— ما أسكتك يا مولاتى ؟ ..

— خاطر عجيب خطر لى ٠٠٠ ألا يكون قول الهنود بالتناسخ صحيحا ؟

— وماذا أذكرك به ؟

— هذا التجريد العجيب بغير تلقين سابق ، وكأنه تلقى أسرارهِ على يد اخناتون الذى سبقه بثمانية قرون ٠٠٠ فهو يناجى ربه ، وكأنه يصيح من أعماق روحه المتجردة : « أستغفرك اللهم عن ثلاث : جعلت لك فى تأملك الصور وأنت بلا صورة ، وألصقت بك فى مدحك الصفات وأنت لا توصف ، وقصدت اليك فى الهياكل والمحاريب وأنت حاضر أبدا فى كل مكان ! »

— الله الله ! ما أطف الحس وأصدق النجوى !

نجوى آتون

فقالت الملكة :

— أجل ٠٠ ما أطف الحس وأصدق النجوى ! وكذلك كانت نجوى اخناتون لآتون، الاله المجرد المنزه الذى تتبدى للناس قدرته ونعمه من وراء قرص الشمس ، قبلة النجوى ومحراب الترتيل ، لانها المظهر الاكبر لذلك المخبر الذى لا تدركه الابصار ، وهو نبع الحياة الخالد

— ألا أسمع منه شيئا ؟

— بلى وكرامة :

« أنت المشرق بالبهاء فى آفاق السماء

« شمسا حية منذ أول الأزل

« يتجلى نورك فى مشرق العالم

« فيفيض على الارض بهاؤك

« أيها البهى القوى العلى

« هذى أنوارك تغمر خليقتك جميعا

« فى أقطار الارض قاصيها ودانيها

« تجمعها كلها مكبلة بقيود محبتك
« لا تفرط فى أحد منها



« تعاليت أيها المكنون الا عن آلائه
« يا من تستوى فى المغرب فكأن الموت لف الكون :
« فالتاس نيام لو سلبوا لما أحسوا
« والضاريات تخرج من أوجارها
« وتدب الافاعى دبيبها المرهوب
« بيدك أمر الكون ، وهلاكه عليك هين
« لأنك أنت باريه ..
« فأنت الحياة ، ولا حياة الا بك



« بك ينمو ويدب ما فى الارض من سائمة ونبت
« وتحت نورك النافذ يمرح السمك فى جوف اليم
« يا مبدع الأجنة فى الارحام
« يا جاعل الحصب فى أصلاب الرجال
« يا مطعم الجنين فى أحشاء أمه
« ونافخ نسمة الحياة فى أوصاله
« فاذا خرج الى الدنيا أنطقت لسانه
« ودبرت له حاجة معاشه



« يا مبدع الفرخ فى البيضة
« ومانحه القدرة على الاكتمال فيها

« حتى اذا اكتمل أعنته على كسرهما
« فيخرج منها مرققا يمرح هنا وهناك
« فرحا بالنور الذي وهبته اياه



« ما أعظم نعمك وآلاءك
« وان ما خفى علينا منها لا أعظم
« أيها الواحد الأحد ، الذى تنزه عن الشريك
« لقد خلقت الارض كما شئت
« وليس موجود سواك
« فكل دابة على قوائمها ،
« وكل سابع فى اليم ،
« وكل مخلق بجناح ،
« كلهم خليقتك سبحانه !
« برأت البلاد كافة
« وأرسيته كلا منها فى قراره المكين
« وقدرت الرزق للخلق أجمعين
« ثم جعلتهم شعوبا وقبائل أشتاتا
« وأنت وحدك واحد أحد »

مدينة الله

وسكنت الملكة ، وسكت أنا كذلك لحظة ، فقد كنت
مأخوذة بسحر ما سمعت ، ثم فتح الله على فقلت :
— سبحانه سبحانه ، وتعالى علوا كبيرا ... حقا ان من
الشعر لحكمة ...
— وشاعر هو يابنية لا يشق له غبار، وان عنى قوم بالشعر
مثلية لا تليق بذوى الاقدار والاطار ...

— معاذ الله مولاتى .. انما هو شاعر بالمعنى الرفيع ،
لا شائبة فى خلقه من نزق ، والشعراء صيادح الحياة ، فى
بيانهم يتبدى من جلالها ما يتبدى فى الاقحوان والنسرين ،
وما أدرى والله يا مولاتى ، بعد ذلك البيان المشرق والسحر
المتدفق ، أى أمجاد فرعون كانت آثر لديه : أمجاد الشاعر
أم أمجاد العاهل القادر والمهيمن الأمر ؟

— الشاعر يا بنية الشاعر .. فقد خلت من قبل اخناتون
الملوك ، ولكن ليس فى الفراعين من له نفس اخناتون المرفهة
وسريره الصادقة

— ما أحسبه الا قد فتن الناس بهذا السحر الحلال ...
— واهال له ! لقد استشرى الفساد فى طيبة ، واضطر الملك
النبي أن ينجو بدينه مهاجرا كما هاجر سائر أصحاب
الرسالات العلوية ...

— وى ! انه الملك !

— وان ، فالعقائد الموروثة ، وأنظمة الجماعات المرتبة على تلك
العقائد أقوى سلطانا لدى الناس من أمر السلطان ...
فناهيك اذن وقد طامن السلطان من شأن نفسه ونزل عن
محلّه الرفيع
— ماذا ؟

— لقد عهد الناس فرعون ابن آمون ، ودرجوا على أن يروه
ظل الاله ، وأن يلقاهم فرعون لقاء الالهة للعبيد ... فاذا ذلك
الاله ينكر الالهة على نفسه ، وينزل عنها الى مستوى
البشر ، غير مستبق من الالهة الا صفة الرسالة وأمانة
البلاغ المبين ... فلم يجد اخناتون بدا من الهجرة من طيبة
ليجعل لربه العلى مثابا طاهرا لا يشركه فيه رجس من
الاصنام ... فارتقى النيل ، حتى وجد تلك المثابة فى جنة
من جنان الله لم تسكن من قبل ، عند « تل العمارنة » .

فأقام هناك مدينة أفق الشمس في حضن جبلها الاشم ..
واحتفل بتدشينها ، وبارك من حولها ، وجعلها حرما لا تطؤه
قدم مشرك بآتون ، وأقام فيها قصره الى جوار الهيكل ،
وبنى للناس على وجه السرعة بيوتهم في نسق رائع معنيا
بجمال كل شيء فيها

— وهل يحرص الشاعر على شيء حرصه على الجمال؟ ..

— بل قولى : هل يفترق حس الجمال عن حس التدين في
الانسان ؟ أن الذوق هو منبع كل حس بالجمال الظاهر
والجمال الاسمى على السواء . ولا تصدق أن متذوقا
أصيلا للجمال يمكن أن يكون من أصحاب التشاؤم ودعاة
اليأس والحزن والعزوف عن المسرات ... فهذا اخناتون
على ضعف تكوينه ، وشحوب لونه ، ووراثته المنكودة عن
أبيه ، والحاح الصرع عليه ذلك الالحاح الذى يعرفه أكثر
العباقر ذوى السبحات المذكورة في عالم الروح والفن ...
نراه مع هذا لا يبشر بشيء كما يبشر بالسرور والمرح والغبطة،
لان لباب الحياة هو السرور ... وان تسبيحه لربه لا يحفل
بشيء كما يحفل بالحركة المعبرة عند جميع الكائنات عن
« فرح الحياة »

— ومن ذا الذى هاجر معه الى « مدينة الله » الجديدة ؟

— بقى المحافظون على ما وجدوا عليه أباءهم ، لانهم
ناعمون في ظل النظام القديم .. وتبعه في مهجره من آمن
به وأكثرهم ممن لم يكونوا شيئا مذكورا ، فجعلهم أخناتون
شيئا مذكورا ... وأول هؤلاء صفيه «مريرع» الذى جعله
كاهن آتون الاعظم .. حتى اذا استقر الامر في العاصمة
الناشئة ، ضرب أخناتون ضربته ، فأبطل كل عبادة سوى
عبادة آتون، محطما أصنامها، مشردا كهانها ، مسفها أحلامهم،
وتعقبهم بعذاب أليم ، حتى أوشك ألا يبقى من عبادة
الاصنام على أثر ...

لعنة الذهب

الكوفي

لو أنصف الدهر

فقلت للملكة :

— أعظم بها من وثبة نحو نقاء العقيدة، وكمال الناموس،
وقيام الجماعة على التعاطف والتجاوب بين الكون
والإنسان ...

فقلت الملكة :

— وليس للعقيدة ، أى عقيدة ، من معنى سوى تفسير
الصلة بين الكون وضمير الإنسان . وإنما تتفاوت العقائد
رقيا وسموا بتفاوت نجاحها فى تقرير تلك الصلة

— والعقيدة الصالحة ولا شك هى تلك التى تقيم صلة
الكون بالإنسان على الخير لا على الرهبة والفرع وعلى العناية
الحكيمة لا على هوى آلهة أو قوى طبيعية لا ضابط لها . .
فلا ريب أن عقيدة أحناتون التى دعا الناس إليها عقيدة
أكمل مما سبقها من العقائد بما لا يقاس . فقد نقل الناس
من الشرك الى الوجدانية ، ومن خصوصية الآلهة أى
اختصاصها بملكة معينة من الملكات والقوى ، وبشعب معين
هو شعب مصر ، فجعل الله رب الكون أجمع ، وصاحب
القوى والنعم ظاهرها وخافيتها ، ونزعه عن الهوى والقسوة
والاستبداد ، فالخليقة تحت سلطانه تسعى الى السرور ولا
تعيش فى رهبة وفزع مقيم من بطشه ومقتته

— انصفت يابنية . . ولو أنصف الدهر كما أنصفت لأدرك
الناس هذا الذى أدركت، ولرأوا فى الدين الجديد نورا ينبغى
أن يصونوه ممن يريدون أن يطفئوه بأفواههم غيظا من الحق
والخير وحنقا . . ولكانت مصر قد انتقلت من الضلالة الى

الرشد ، ومن الغي الى البر ، ومن الفساد وأكل القوى
الضعيف الى خطة عادلة وحكومة تعدل بين الناس ...
ولكن الدهر لم ينصف ذلك الدين ، وتألبت على اخفاق
دعوته عوامل شتى ، ترجع الى اثنتين : غفلة العامة وأهواء
من يستغلونهم ويسخرونهم على اختلاف ضروب الاستغلال
والتسخير ...

لعنة الذهب

فقلت للملكة :

— ان الغفلة لا تقاس الا بمقياس مؤثرات المستغفلين ، من
المستغلين والحاتقين ، فما دعوى هؤلاء ؟
— أول هؤلاء يا بنية هم عبيد الذهب ، أو سادة الذهب
وأصحاب المال ، فالاسمان مترادفان ...
— مترادفان ؟ وكيف يتساوى العبيد والسادة ، والمالك
والمملوك ؟ ..
— بل يستويان ، وان بدا ذلك غريبا لأول وهلة ..
— وكيف كان ذلك ؟

— كلاهما يا بنية يعيش للغنى والثراء ، ولا يحفل بشيء
غير تكديس المال أو تنميته ما استطاع .. فكلما اجتمع اليه
قدر من المال كبير ، حسب نفسه قد ملك ما اشتهى ، وهو
في الواقع مملوك لما يملك ، مسخر في رعايته وصيافته ، ولو
كلفه ذلك خنق ضميره وصم أذنيه وطمس عينيه . فهو في
عرف الناس وعرف نفسه سيد الذهب وصاحب المال، وانما
هو في واقع الامر عبد الذهب وخادمه المسخر ...
— آمنت بالله ! ..

— ومن عجب أنك لم تعرفي هذا وقد سبقت فيه الاقوال ،
في عصركم وفيما سبق عصركم ، وشاعت في أمر الذهب
وسلطانه الاساطير ، التي لا تعدو الحقيقة في كثير ...

— وما ذاك يا مولاتى ؟ فان عندك علم الاولين والآخرين ،
ونحن نحسبك مجرد تمثال فى متحف برلين ...

فقالت الملكة باسمه :

— أول تلك الاساطير ، أسطورة مما حفظ عن أصحابك
الاغريق ، أيام مجدهم العريق . فقد زعموا أنه كان فى بعض
البلدان ملك قريب من قلوب الآلهة ، فسألوه أن يتمنى عليهم
أمنية تجاب بلا قيد ولا شرط ... وكان الذهب — ولا
يزال — فتنة الناس وشهوة النفوس ، لا يشبع منه متخم
ولا محروم . فتمنى ذلك الملك ، وأظن أنه كان يسمى «ميدا»
أن يعطى نعمة الذهب ، فلا يلمس شيئاً أيا كان الا استحالة
لتوه ذهباً ... فكان له ما أراد . ففرح فرحاً لا نظير له
بهذه المنة العظمى التى حسبها أعظم ما أتيح للبشر الفانين من
نعم الآلهة ، وأيقن أنه سيكون سعيداً بها سعادة لا تشبهها
سعادة فى المشرق والمغرب ، فى الماضى وفيما يجىء من الأيام ...
وفتح الملك ميدا عينيه ذلك الصباح ، فشك فى حقيقة الرؤيا ،
ونفض عن نفسه الغطاء ، فاذا الغطاء يستحيل بين يديه ذهباً
خالصاً ! فكاد يصيح دهشة وفرحاً لولا بقية من وقار الملك ،
أو لولا المفاجأة ، فتقلب فى فراشه وهم بلبس خفه فى قدميه ،
فاذا الخف يستحيل فى قدميه الى ذهب ... فأيقن أن رؤياه
لم تكن أضغاث أحلام ، فجعل يهتف بامرأته الحبيبة ، فجاءت
الملكة من حجرتها على عجل ، فأخذها بين ذراعيه وهو فى
نشوة الفرح والحماسة ليقبلها ... فاذا الملكة الحسناء
تستحيل بين ذراعيه الى تمثال من الذهب ...

— رباها !

— فذعر « ميدا » ، وكاد يجن ، لانه أدرك فى هذه الساعة
مبلغ النعمة التى تكمن فى هذه النعمة التى تمنّاها . وجعل
يستصرخ الآلهة أن تسترد نعمتها وترد اليه زوجته ، وتأخذ
ما لديه من المال والثراء فلا يبقى له من ذلك شيء . ولكن

صياحه ذهب أدراج الرياح ... ولم يفده الا تجمع أهل
القصر وخدمه حوله وهو يصيح كمن به مس .. وان به
علم الله لمسا من جنون ذلك الذهب . وحاول أولاده أن
يقربوه ليهدئوا من روعه ، فجعل يصيح في وجوههم أن
ابتعدوا ...

— موقف هائل !

— الى أقصى حد .! فتصوري فزع الامراء أبنائه اذ رأوا
أهمهم دمية جامدة بعد أن كانت فتنة حية . وفزع رجال
الحاشية وهم يرون مالا يفقهون ، ويسمعون الملك يهذى
بما لا يعقلون ... ولكنهم حسموا الشك باليقين حين تطوع
ذو نجدة منهم فقدم للملك الهائج كأسا من الماء ، وتناول
الملك الكأس فلم تتحول الى ذهب ، لانها كانت من الذهب
أصلا ، ولكنه ما رفعها الى شفثيه ليعب منها حتى يطفىء
النار المشبوبة في جوفه ، حتى جمد الماء واستحال الى
نضار ... فخر مغشيا عليه ، لانه أيقن من هلاكه ، وانه لا
نجاة له من عقبي شهوته التي تمنها ملحا وتلقاها فرحا ...
فلا سبيل له الى طعام أو شراب ، وقد تمنى جرعة ماء
وكسرة خبز قفار بما في حوزته من نضار ... ولكن هيهات!
وتمنى ضمة من ولده وبنته يودعهما قبل موته ، ولكنه كان
ينظر اليهما حسيرا ملوما ، يبكيان ويبكى، وهو يقاوم مقاومة
بائسة حتى لا يلثمهما في ساعته الاخيرة ... فمات معذبا
أشنع ميتة ماتها انسان قط ، وبالداء الذي حسبه ترياق
سعادة لا تنال ...

عنصر الجحيم ..

فقلت للملكة مأخوذة بما سمعت :

— لا فض فوك يا مولاتى ! ما أبدع الرواية ، وما أعذب
الحديث وأعظم الراوية !

— وهل سمعت الرواية الصادقة التمثيل، رواية «أندرسن»
أديب الدنمركة في العصر الحديث ، فقد ساق الحديث الى
الأطفال في أساطير هي أولى بالكبار من الناس في هذا الزمن
الذي طمست فيه الضمائر والنفوس ؟
— كلى آذان يا مولاتي ..

— زعموا أن الشياطين أرادت أن تكيد للناس كيدها
الاعظم ، فقررت أن تنقل الى الارض عنصرا مدمرا تختلسه
من عناصر جهنم .. واختلست ذلك العنصر المشؤوم ،
وهبطت به من آفاق السماء الى الارض . ولكن شهابا ثاقبا
كان لها بالمرصاد ، فهاجمها قبل أن تنزل دنيا العباد ،
فأحرقها ، ووقع العنصر الجهنمي من بين يديها ، فلاقاه
الشهاب ، فتبدد ذرات دقيقة ملأت جو الارض ، ونزل بعض
منه في وديانها وقفارها . أما ما وقع في الوديان والقفار
والجبال فصار جرثومة مناجم الذهب التي نعرفها . وأما
ما طار في الهواء ، فدخل بعضه في آذان الناس، ودخل بعضه
في عيونهم ، ونفذ بعضه الى ألسنتهم ، وتسرب بعضه مع
ريقهم الى أجوافهم وقلوبهم ...

— لا حول ولا قوة الا بالله !

— أجل ، فمن دخل في أذنه شيء منه لم يعد يصيخ السمع
الا لحديث المال والثراء، ويصم أذنيه عما عدا ذلك من النداء .
ومن دخل عينيه شيء منه لم يعد يرى في الدنيا الا صفرة
الذهب اللماع ، ولا يرى عدا ذلك شيئا مما تحفل به الحياة
من الجمال الرائع والفن الرفيع . ومن دخل في فمه شيء من
ذلك العنصر لم يعد يتحدث الا عن المال ، ولا يتذوق شيئا
من طعوم الحياة الا لذة الثراء ... وأما من نفذ العنصر
المشؤوم الى قلبه والعياذ بالله من البلاء ، فذلك من ختم الله
على قلبه ، فلا يشعر بشعور بنى آدم من عطف ، أو حب ،
أو رحمة ، أو فتنة حس ، أو سحر بيان ، أو جمال صدقة ،

أو صلة رحم ورابطة دم ... لان قلبه قد تحجر ، وصار
هيكلا من الذهب ، لا يسكنه الا صنم الذهب ...
فقلت للملكة :

— صدق الشاعر وربى ...

— أجل صدق وما بغى ، فكذلك كان حزب البغى من عبید
الذهب على أيام اخناتون .. نفذ الى قلوبهم عنصر جهنم ،
فلم يكن لهم شاغل الا مقاومة دعوة الحق التى تقوض سلطانهم
وتنكس صنمهم الملعون ..

— وهل كان اخناتون عازما على مصادرة أموالهم ؟

— كلا ونعم ! فهو لا يتعرض لما لديهم فعلا من المال ، ولكنه
يشر باله محب عطوف يرعى الناس كافة ، ويريد الخير
للناس كافة .. فلا بد من توزيع الخيرات الالهية بين الناس
بالعدل ، كما تشرق الشمس على الكوخ والقصر بقدر متساو
.. ففى نيته لو امتد به الاجل ان يرفع الحدود التى تفصل
بين الحقول ، لان الارض ارض الله ، يأكل منها أبناؤه — أى
خليقته المحبوبة — بما يرزقهم بعد أن يفلحوها بعرقهم .
فكيف يرضى المتخمون من عبید الذهب عن هذا الرأى ؟
وكيف يسلمون بأن الناس سواسية فى الحظوة عند الله
لا يفرق بين أحد منهم ؟ وكيف يؤمنون بدين يحطم صنمهم
ويقسم عقيدة الروح على أطلال المادية الجامدة والانانية
الشوهاء ؟ كلا ! لن يسلموا الا كارهين ، ولن يقعدهم شىء
عن مقاومة النور الجديد وصدده بما أوتوا من قوة وحول

أصحاب الرياستين

فقلت :

— أمر هؤلاء واضح بين .. ومن الطبيعى أن يقفوا هذا
الموقف ، فما خطب سائر طوائف الناس ؟

— يأتي بعد هؤلاء القلة النافذة السلطان من عبيد المال
أو ملوك المال ، قلة أخرى أشد خطرا وأعظم قدرا : هم
أصحاب الرياستين ، وعبيد الصنمين ...

— ومن هؤلاء ؟ ..

— كهان آمون : من لهم سلطان الدين ونفوذه الساحق،
ولهم الى هذا سلطان المال وجاه السياسة .. عظم نفوذ
معبودهم ، اله طيبة ، منذ قام أمراء هذا البلد بزعامة حرب
التحرير فطردوا الهكسوس من مصر ، ثم طاردوهم في شرق
الارض حتى دانت لهم تلك الامبراطورية الواسعة ، من
أطراف الفرات الاعلى الى الشلال الرابع من بلاد السودان
... فصارت لربهم الزعامة بين الارباب ، وكثرت أوقافه على
مر الاجيال ، حتى صار له خير ما في الوادي من الضياع
ذات الثمر ، وصارت له المتاجر الكثيرة، فاجتمع لكهانه سلطان
الدين وتهاويل دعاواه عند العامة ، وسلطان المال المتجمع في
قبضة واحدة منظمة ، فأحسنوا الدعاية ، وصرف الاعانات
للاتباع والمبشرين والمروجين ، واستطاعوا أن يسخروا نفوذ
الدين والمال في السيطرة على السياسة أيضا، فملأوا الدواوين
بصنائعهم، وملأوا القصر بعيونهم، وصاروا يضارعون فرعون
في كل شيء ، لولا أن لفرعون الجند الكثير ، ولشخصيته
الدينية بوصفه سليل الآلهة قدسية تحصنه من العدوان ،
أو تجعل ذلك العدوان غير مأمون العاقبة على الاقل ...
فأولئك الكهان عصابة منظمة محكمة ، لها أسرارها وهيبتها،
فهم دولة في الدولة ..

— وكيف صبر الفراعين الاقوياء على هذه المطاولة ؟

— لم يصبروا عليها ، ولكنهم كانوا على ضيقهم بها لا يجدون
لهم مخرجا ولا مخلصا من هذا الاضطوط المتشعب السلطان
.. حتى اذا جاء اخناتون وأعلن دينه الجديد، وجدوا حديدا

يفل ما لديهم من الحديد ، بضاعته من بضاعتهم ولكنها أنقى
عنصرا وأشرف مصدرا . ورأوا سيفا قاطعا يهدد دينهم
ويهدد مالهم ، ويوشك أن يقضى على صنمهم : صنم الدين
وصنم الذهب . . فهل كانوا مدعنين مستسلمين ؟
— هذا غير معقول . .

— كذلك هبوا ، وقد وضعوا يدهم في يد رجال المال وأهل
الغنى — وهم أيضا في الواقع رأس طبقة الاغنياء نفسها —
لكي يصدوا هذا الخطر الداهم . فجعلوا يسخرون سلطانهم
الدينى على السذج ، ويبذلون الاموال عن سعة في سبيل
تشويه ذلك الدين الجديد ، وتسفيه صاحبه وتجريح شرفه
وعقله لدى الشعب المخدوع . واشتد ذلك العداء بعد أن
هجر اخناتون طيبة ، وسكن مدينة آتون (قرب ملوى الآن)
وأبطل جميع العبادات ، ولا سيما عبادة اله طيبة آمون ،
فصادر الاموال ، وحطم الاصنام وأقفل المعابد ، وأصبح
الصراع بين آمون وآتون صراع حياة أو موت . .
فقلت لنفرتيتى :

— ذلك موقف أهل المال ، وأهل الدين ، فكيف كان
أوساط الناس ؟ . .

فتنهدت الملكة وقالت :

— قيل خير الامور الوسط ، ولكن كثيرا مايكون الوسط
شر الامور جميعا ، ولاسيما ادنى الوسط من أهل الحواضر ،
لانهم أهل الطموح والطمع ، فيهم سوءات الادنين والاعلين
على السواء . . .

— هل أفهم من هذا انهم كانوا حربا على الدين الجديد ،
الذى يزمع أن يزيل من وجههم من يسدون عليهم المنافذ
من أهل اليسار من مدنيين وكهان ؟

— لقد كان منهم الاعداء ومنهم الانصار . . ولكن الفريقين

جميعا كانوا حربا على الدين الجديد ، ان عمدا وان عفوا . . .
— وكيف كان ذلك ؟

— لقد علمنا ان الدين الجديد لم يكن ليستهوى أهل اليسار
والجاه التليد ، فكان حقيقا أن يستهوى قوما من المستضعفين
أوالمغمورين من أدنى الوسط في طبقات المجتمع ، من طلاب
العلم وصغار المثقفين . . وأن يكون أسبق هؤلاء الى الدخول
فيه النهازون والوصوليون ، ممن يرونه فرصة مواتية الى
الجاه في الدولة الجديدة ، تصطنعهم وتمنحهم الرتب والالقب

— مولاتى ! تلك سنة الدول في كل عصر الى يومنا
الحاضر ، فالذى يقيم نظاما جديدا ، أوسلالة ملكية جديدة ،
لا يأمن على دولته من رجال النظام البائد ، لانهم غير مدينين
لنظام الجديد بشيء . فيصطنع رجالا لم يكونوا شيئا من
قبل ، لكى يتفانوا في خدمة النظام الجديد ، لانهم مدينون
له بكيانهم المستحدث وجاههم الطريف . . فوجودهم رهن
ببقائه وقوته . فلا عجب أن يذودوا عنه مخلصين

— أو منتفعين مأجورين ، همهم ماكسبوا وما نهبوا .
أولئك تنقصهم ميزات السلالات العريقة في النبل ، لانهم
مرتزقة بغير أحساب . . انظرى من جعلهم بونابرت ملوكا
وأمرأاء ودوقات بعد أن كانوا من الهمل والرعا . أتراهم
ظلوا على عهده من بعد أن زال ملكه ؟

— كلا يا مولاتى ! بل ان منهم — مثل برنادوت — من
خانه وهو فى الميدان ، ومنهم من ترامى تحت أقدام الملك
الجديد لكى يبقى على جاهه وماله . . . فاحترام الوصولى
للدولة القديمة أكبر دائما من احترامه للدولة الجديدة . . .

— صدقت يا بنية . لأن الدولة القديمة كانت أكبر منه
جدا اذ كان فيها حقيرا ، والدولة الجديدة ليست أكبر منه
مطلقا لأنه صار فيها شيئا خطيرا . . . ومن هذا الجانب يأتى

حنين الوصوليين الى كسب رضى الدولة القديمة ، توكيدا
لاعتبارهم الجديد ، ولكي يثبتوا لأنفسهم أنهم صاروا أصحاب
شأن بنفس المقياس الذى كانوا به ولا شأن لهم ، وليس
نابليون الا مثلا من مئات الامثال ، فى كل بلد وفى كل جيل

— هذا شأن الاولياء من الوصوليين .. وهو مفهوم
ومعقول . فكيف كان يا مولاتى من هؤلاء أمراء لم يدخلوا
فى الدين الجديد ، فضيعوا الفرصة على أنفسهم ؟

— ليس كل وصولى حقيقا أن يصل ، ولا كل نهاز
للفرصة يدرك الفرصة حقا . فالجاه سبيله ضيق ، فمن
أفلح من الوصوليين ونبه له شأن فى الدولة الجديدة ، أثار
حسد من كانوا مثله ، أو من كانوا يحسبون أنفسهم مثله
أو خيرا منه ... وان شاعركم العربى لصادق حين يقول
فى هذا الصدد :

كل العداوات قد ترجى ازالتها الاعداء من عاداك من حسد!

— لله در أبى الطيب ! ذلك والله هو القول الحكيم !

— اجل ! فليست ثمة عداوة هى أبعث للتطرف فى الخصومة
من الحسد الذى ينشب بين الانداد . وان ذلك العداء الاكبر
لجدير أن يجعل الحاسدين يستमितون فى حرب الدولة الجديدة ،
حتى ينهار جاه من يحسدونهم بانهارها ...

— ولكن ألا يعقلون ان الدولة الجديدة ترفع الظلم عن
المستضعفين وهم منهم ، وتزيل كابوس الاستغلال والعسف
الجاثم على صدورهم ، ممثلا فى كبار الاثرياء وفجرة الكهان
من رهط آمون ؟ ..

— أتقولين هل لا يعقلون ؟ وهل كان للحسد عقل يوما من
الايام يا بنية ؟ ان الحسود كالعاشق ، كلاهما لاعقل له !

انتقاض الاطراف

فقلت :

— لقد اجتمعت على حرب الدين الجديد شياطين المال
والشعوذة والحسد ... فما أحرى سواد الناس أن يضلوا
وراء هؤلاء الغواة ...
فقالت الملكة :

— مهلا ! لم يأت أوان النظر في أمر الشعب وما كان منه
مع الدين الجديد . فتلک الشياطين الثلاثة ، شياطين المال
والشعوذة والحسد انما تعمل في الداخل ، على ضفاف النيل .
ولكن ثمة عوامل كانت تفعل فعلها في أطراف الدولة ، وأجزاء
الامبراطورية المترامية

— لقد علمت يامولاتى ان أمر الامبراطورية قد جنح الى
الاهمال والتواكل في عهد أبیک امنحطب الثالث ، وانه كان
لايعنيه من اماراتها الا ما تفيء عليه من مال وجوهر ونساء
حسان ... وانه كان يتألف قلوب فريق من الامراء ليشتري
ولاءهم أحيانا

— كذلك كان الحال .. وهو على عهد اخناتون كان ادعى
الى الضياع مما كان على عهد أبيه ، لا لعيب في اخناتون ،
بل لمزية من أكبر المزايا اذا نظرنا الى الامر بمقياس انساني
رفيع

— وما تلك المزية التى أعقبت بلية ؟ ..

— ان هذا الملك كان رسول دين يقول بالتوحيد، وبالعالمية
فى العقيدة والوجود ، لا تعرف ديانتة التمييز بين اللغات
والحدود .. فهو لهذا حرى أن يكره العنت والاستبداد ،
وأن يكون البشير الاول بالتنزيه والتجريد ، وبحق تقرير
المصير للشعوب جميعا . فلم يكن قلبه يطاوعه ولا ضميره
يسمح له بارغام الناس واكراههم على الخضوع لسلطان
يكرهونه ، ولو كان هذا السلطان سلطانه هو !

— ما أسمى النظرة وأقدس الفطرة !

— لولا انها طفرة !

— ولكنها تستهدف محو الاعنات والاثرة ...

— وان ! فالناس عبيد ما ألفوا ، ولو كانوا كلهم كاخناتون ،
لما احتاجوا لاسناد الدعوة الى اخناتون . فالسقاء لا يطلب
ولا يذكر حيث الماء قريب ميسر ... فضياع الامبراطورية
والتشاغل عن حفظها منكر عند المنتفعين بامتلاكها ليس
بعده منكر ، لأنه تضييع منافع خاصة ، ولأنه أيضا جناية
على القومية والمجد الوطنى ، أو هكذا يتسنى للمغرض أن
يقول ويعيد ، فيؤلب الناس ويستنفر القلوب الى الحقد
على « الخائن المفرط الذى بدد ميراث الاجداد »

— ياله من موقف شائك ...

— اجل ! وأبعد من هذا فى الحرج ان كثيرين من الامراء
رأوا ان الفرصة مواتية للخيانة . أو لعلهم أنسوا فى فرعون
ضعفا أو اهمالا لحماية أطراف الدولة ، فأوجسوا من هجوم
الحيثيين وغيرهم ، فيؤخذون أخذا شديدا ، فمالوا الى جانبهم
وانحازوا اليهم ... وكان أشهرهم فى ذلك المسلك « عزيزو
ابن عبد شراة » صاحب الاموريين ، الذى ظل يخادع فرعون
ويمنيه بالولاء ، ثم انحدر مع الحيثيين فانتزعا من مصر معظم
ملك الشام وفلسطين لقمة سائغة ، لأن فرعون كان مشغولا
بفتن الداخل عن نجدة من استنجد به من ولاته المخلصين ...
حتى اذا أفاق على الكارثة بعث اليهم جيشا صغيرا لم يصمد
للعدو طويلا ...

— وى ! وفيهم الجيش اذا كان يؤمن بالحرية لجميع
الشعوب ؟

— وهل هى ثورة أهلية فى طلب الحرية ؟ كلا ! فلطالما
استنجد به الاهلون ان يحميهم من غزو الحيثيين .. ثم ان

اخناتون لم يكن مفرطاً في الامبراطورية طواعية ، بل لعله كان يميل الى الاحتفاظ بها لخدمة هدفه الاسمى ...
— عجباً ! وهل يخدم التوحيد والحرية والعدل الاجتماعى بالفتح والاستعمار ؟ كيف يتفق هذان ؟ ...
— بل يتفقان ! فان آتون اله الناس كافة وليس اله مصر وحدها ، فأدعى لنشر عقيدته في الخافقين أن يكون تحت سلطانه الخافقان . بيد ان فتن الداخل ، وعبء الدعوة الجديدة عجلاً بفقدان هذا الامل الكبير ، فاجتمع عليه كرب الخارج والداخل ...

الفلة الكبرى

فلم أستطع منع حسرة خالجت نفسى لسوء حظ هذا الرجل الذى جرد نفسه للحق والخير ، فأخطأه التوفيق فى كل أمر ، وقلت لنفرتيتى :
— ما أقساها محنة ، فليس فى كل ما اكتنفه موضع لمسرة أو استبشار
— وهل نسيت الايمان يابنية ؟ ان اخناتون كان أشد الناس يقيناً بما وكل به نفسه من أمر هذا الدين ، فاما أظهره أو هلك دونه .. وان ما علمت من أمر طوائف الرعية فى مصر والشام هو تألب الاهواء على الحق الذى لا يعرف الهوى ... ولكن الاهواء لا تتم وحدها بغير عنصر الفلة فى سواد الناس . وقد تم هذا العنصر واكتمل فى مصر أيام اخناتون . فكل سبب كان يدعو الشعب المصرى لمؤازرة اخناتون والحذر من ذوى الاغراض كهانا وثرارة ومثقفين ، لأن اخناتون كان يحارب هؤلاء انتصاراً لسواد هذا الناس .. فاذا هذه الاسباب نفسها هى التى تجعل سواد الناس يمالئون أهل الهوى ضد اخناتون : فيصدقون الكهان انه كافر ، ويصدقون الاغنياء انه سفيه فاجر ، ويصدقون المثقفين انه خائن للامانة مهدر لمجد توارثته الاجيال كابراً عن كابر

أصل الداء

فقلت مستفسرة :

— انى أعلم ان غفلة الشعب هى أعدى أعدائه ومجتمع أدوائه . وانه بغير يقظة الامة لاخير لها فى شىء ، وليس أجمع لهذا الامر من كلمة الامام محمد عبده : « اذا فقدت الامة حرية رأيها وشجاعة ايمانها فلا خير لها فى استقلال ولا فى دستور » ولكن للغفلة فى أزمة اخناتون سببا خاصا ولا ريب ، لأن دواعى البيان المستقيم لم تكن تنقص فرعون وأعوانه ومبشره . فكيف مال الناس عنه وجهلوا حقيقته ؟

— لأنهم لم يفهموه .. اجل لم يفهموه على كثرة وسائله فى التفهيم ، وعلى وضوح أمره بحيث لا يحتاج الى ايضاح لذى عقل مستقيم .. فالمنطق والمصلحة كلاهما كانا مجتمعين لدى الشعب المصرى لتأييده واتباعه ، لولا اختلاف الطبائع وغرابة المعدن ...

— أى طبائع وأى معدن ؟

— معدن الروح العظيم اخناتون .. فهو معدن غريب لا يألفه معدن عامة الناس .. فهو كالطير الغريب لا يقبله سائر الطير فى الحظيرة فيوسعه نكالا ... وهل أغرب عند الناس منه وقد فطروا على الانانية والطمع ، فلا ينتظرون من قادر أن يتورع ، ولا هم يفهمونه اذا استطاع فامتنع أو تمنع .. لأنهم لو قدروا لما آثروا العفة ، فكيف يفهمون من يعف وهو قادر ليس فوق سلطانه رادع ؟ .. هذا هو الداء الاصيل ، والعلة الخفية وراء جميع العلل التى قد تفسر بها رفض الناس لدعوة اخناتون .. وبغير هذا الاستغراب — والانسان عدو ما يجهل — لم يكن يقدر نجاح لدعاية أعدائه وارجافهم ...

وسكتت الملكة لحظة ثم ندت عنها ضحكة خافتة ، فقلت :

— اضحك الله سنك يامولاتى ..

فقلت وهى لاتزال تضحك :

— هو شىء من باب « منطق العواطف » ، وهو من أحفل
الابواب بالمفارقات فى حياة الانسان الحافلة بالاعاجيب
— وما ذاك يامولاتى ؟

— ان فرعون كان الها للمصريين منظورا ، ينوب عن
الالهة المتوارية بحجاب فى عالم الارباب ، فكان المصرى
من عامة الناس يرى له فى فرعون ربا ، والرب أعلى مراتب
الوجود ولا مرأى . حتى جاء اخناتون فقال : « لست ربكم
الاعلى ! ما أنا الا بشر ! انى انسان ورسول ، ولست باله !
فلا تعبدوا الا الهى والهمك الواحد الاحد » فساءهم منه
هذا المقال

— عجباً ! انه خلصهم من عبودية سخيصة لملك هو بشر
مثلهم .. !

— وهذا هو موضع المفارقة فى منطق العواطف : فان
الرجل منهم وقع فى نفسه انه خرج من هذه الدعوة بصفقة
المغبون : كان ملكه الها ، فصار مجرد انسان ! كان يملك الها ،
فأصبحت هذه البضاعة التى كان يملكها وقد نقصت
قيمتها كثيرا ... وما أشبه هذا بالخدام الذى يسخطه أن
يكتشف أن سيده موظف فى الديوان وقد كان يحسبه من
الوزراء ... فمثل هذه النفوس تكبر فى نظر نفسها اذا كبر
سادتها ، فاذا صغروا شعرت انها تضاءلت بعد عزة ،
وتطامنت بعد شموخ ...

العزة بالاثم

فصحت مغيظة محنقة :

— انها العبودية يامولاتى ..

— وهذا أسوأ ما فى أحوال المستعبدين . فان كل غل

يحطم ، الا ما كان مفروضا من داخل ، لأنه جزء من فطرة
الراسف فيه ...

— ولكن هل كان كل الناس على هذا الغرار ؟ ..
— كلا ... فمنهم من أبى واستكبر ، لأنه قد أخذته
العزة بالاثم ، فقد كان حريا أن يقبل الدعوة من كاهن أو
مبشر ، اما وهى فرض يفرض من أعلى ، من مصدر السلطان ،
فهو يستنكف أن يترك ما وجد عليه الآباء والاجداد نزولا
على أمر السلطان ، لما فى ذلك من شبهة الخنوع أو الزلقى ...
— وهذا لعمرى أشبه الناس بالقاضى الذى يظلم ليشتهر
بين الناس بالعدل !

— اجل ! ثم لا تنسى موجة الانحلال والتبذل التى سرت
فى عهد سلفنا ووالدنا ... فكيف يتخلى الناس عن الاسفاف
والتحلل من كل قيد ، لينزلوا على قيد الفضيلة وناموس
الروح ؟

— وهل خلا مجتمع يوما من فسق مستور أو سافر ؟
— كلا ! ولكن شيوع الاستنكار العرفى للفسق بجانب
انتشار الفسق دليل على وجود « شخصية معنوية »
للمجتمع وحس خلقى دال على حياته وحيويته .. اما اذا
انعدم ذلك العرف ، كان ذلك آية على زوال شخصية المجتمع
المعنوية ، أى وحدته التى تبقى عليه تماسكه رغم شذوذ
أفراده وتفرقهم أشتانا ... وتلك هى نهاية الجماعة التى
لاتنفع فيها رقية راق ولا طب آس
فسألت الملكة متلهفة :

— وهل وصل الامر الى هذا الحد ؟ ..

— نحمد الله أن لا . فقد بقى الريف المصرى بمنجاة من
هذا الانحلال ، وبقيت الاسر المتوسطة فيه سليمة من
الاضمحلال ، وتلك أصعب العناية التى حمت مصر من عواقب
هذا الانتكاس الخطير ...

هذا هو الإنسان

وما فرعون الا بشر . . .

وتناولت الملكة شيئاً من زهر البستان جعلت تقلبه بين يديها وأنفها لحظة ، ثم التفتت الى لتقول :

— الحق والجمال في ما هيتهما القصوى ينبعان من مصدر واحد : هو الوجدان . وقد أوتى اخناتون عبقرية الحق والجمال من أرقى طراز ، فلم يكن شيء في الدنيا أقدس عنده من الحق المطلق ، ومن عبادة الجمال وتحريره في أسمى صورته ، وهى حب الحق ، والعطف والرحمة . . . ولأنه يدين بالحق المطلق ، بشر بالله الحق ، والحق لا يتعدد ، ولا يتجسد ، ولا يتغير ولا يتبدد . ولأن الله خير كامل ، ومحبة لانهاية لها ، كان اخناتون مثل الانسان المحب ، المؤمن بالله المحب فقلت للملكة :

— ونعم الخلال هى ! . . ولا غرو أن تنوهى بها ، فان التاريخ لم يحفظ حب زوج لزوجته كما حفظ حب اخناتون لنفرتيتى . . أليس حبه لك كان قسمه اذا أقسم اليمين المغلظة ؟

فابتسمت الملكة لتلك الذكرى البعيدة وقالت :

— وما ذاك ؟ انه كان لا يذهب الى حفل حافل في المعبد أو في الساحة ، أو في القصر ، الا وأنا الى جواره ، وبناتنا الصغيرات من حولنا ، أو بين رجلينا في المركبة تشق بنا شوارع المدينة !

وسكتت الملكة ، ثم ابتسمت كأنها ذكرت شيئاً جميلاً آخر :

— انه كان يقبلنى ويبادلنى القبلات وهو يقود العربى فى الطريق العام ، والناس على جانبى الطريق ينظرون ! فما أشبه هذا بولع شباب زمانكم بقيادة السيارات ومعهم صواحبهم ...

فصحت :

— مولاتى ! ياله من تشبيهه ! ..

— مع الفارق طبعاً !

— انه فارق النقيض من النقيض ! فليس تشابه الفعل بالفعل شيئاً .. انما العبرة بالبواعث النفسية . فهل كانت بواعث اخناتون فى مثل هذا الموقف هى الاستهتار والمجون والتمرد على العرف والقانون ؟ .. وهل كان يفعل ذلك بأعراض الناس ساطياً أو مختلساً ؟

— حاشا له ثم حاشا ... وانما قصد من ذلك الى هدف بعيد

— وانى لمشوقة لمعرفة ذلك الهدف البعيد ...

— انه محو ضلالة العقيدة فى ألوهة فرعون . فهو يريد أن يشهد الناس كافة ان فرعون ان هو الا بشر مثلهم رفعه الله مكاناً علياً .. وانه يشعر كما يشعرون ، ويصبو كما يصبون ... ثم قصد أيضاً الى توكيد معنى آخر لا يقل عن ذلك المعنى الدينى الذى يمس التوحيد والتنزيه لذات الله .. وهو ؟

— وهو ان الاسرة شىء مقدس ، وان الزوجة شىء طاهر ، وان لا اثم فى حب صحيح غير قائم على محض شهوة الجسد . وان الرجل الفاضل الكامل حقاً هو الذى يعبد الله بحب زوجته وأولاده ... ولاسيما انه لم يكن لنا بنون ، وانما هن بنات ، والناس قد درجوا على أن « ليس الذكر كالانثى » فأراد أن يدخل فى أنفسهم ان الزوجة الفاضلة والبنات نعمة

كبرى لا ينبغي أن يفض من قيمتها الرجل الكريم المؤمن بالله
الحق المحب واهب الحياة ...

معادن الرجال

فقلت :

— هو المثل والقذوة اذن .. وهو التضحية بالذات في
سبيل الحق .. فهو يأبى الا أن يعن في تحطيم ألوهية فرعون
متطرفا في ذلك الى حد تعريض هيئته للخطر
— اجل هي القذوة .. وتعليم الناس وتصحيح مقاييسهم
للرجال والرجولة أيضا
— وكيف ؟

— ان الناس كانوا يحسبون الرجولة أن يغلظ قلب الرجل
منهم فلا يرق لحرمة ، ولا يهش لفلذة كبده ، ولا يتسبط
مع ذوى قرابته وخاصته ، ولا يبكي ولو نزلت به الرزايا
الجسام ... فكأنما الرجولة « تعطيل » الحياة في الرجل ،
فلا يعرف السرور ولا يعرف الحزن ولا يعرف الحنان ..
فأبى الا أن يصحح ذلك الفهم المعوج ، لأنه كان رجلا عميق
الشعور ، نصيبه من الحياة واحساساتها نصيب ضخم ...
فاذا كان الناس على دين ملوكهم ، فقد حق له أن يبدى
للناس ما ألفوا أن يسان عن العيون ، تعزيزا لسلطان الحق
الى جانب تعزيز مكانة الشعور في حياة الانسان . فهو
يلاطفنى في المآذب والمحافل ، ويداعب بنياته ، ويدعو رجال
دولته الى مثل ذلك .. فاقتنى به منهم عدد ضخم ، حفظت
لكم الايام صورهم مع آلهم وزوجاتهم وبنيتهم في ألفة محبة .
وان مايسعدنى في غربتى بمتحف برلين ، ان بذلك المتحف
تمثال صغير لاختاتون يلثم فم ابنتها الصغيرة في حنان لاحد
له ... وهو الحدث الذى لم يسبق اليه في تاريخ الفراعين
— وانه لحدث عظيم ... فقد نفخ الحياة في قوم كان
مثلهم الاعلى أن يكونوا أصناما بغير حياة !



نفثية في عربتها الملكية

— أى والله يابنية ! وان أنس فلا أنس منظره يوم ماتت بنت من بناتنا السبع ، فقد أنهمر دمه مدرا را ، ووقف معى الى جوار نعشها يندبها ويبكيها غير مقتصد ولا محتجز ! وما كان سواد الناس سيكون البنين فضلا عن البنات .. وناهيك اذن بفرعون سيد الارضين ...

— بل هكذا يكون السيد العظيم حقا ، ولا يكون الا كذلك ! وما أعرف انسانا عظيما خجل من الحزن قط ...

— صدقت يابنية .. فهذا الرسول الكريم يبكى يوم وفاة ابنه ابراهيم ، ويسوى له لحده بيده ، ويقول للجبل : « لو أن بك ما بنا لهدك » ...

— اجل يامولاتى .. وهذا رجل فيلسوف مثل ديكوت يبكى ابنته « فرنسين » التى أنجبها من صديقة له بكاء شديدا .. لعمرى يامولاتى لقد حسب الناس انه هبط بمكانة فرعون ، من حيث ارتفع بها اخناتون الى السماء الاعلى .. ووضع للناس حدا فاصلا بين معادن الرجال وأشباه الرجال

الحق والفن

فقالت الملكة :

— وأبى فوق هذا الا أن يعمم دين الحق والاحساس بالحياة واطراح النفاق والتصنع ، فيشمل الفن كما شمل الحياة .. فانطلق الفن فى عصره من اسار التقليد والجمود القديم ، ليصير ، كما ينبغى له أن يكون ، معبرا عن الاحساس بالحياة ، وعن الاشكال والالوان على حقيقتها .. فألح فى تصويره وتصوير أسرته كما يدون ، بعيوبهم الجسمية ظاهرة ، امعانا فى تحطيم الوهية فرعون وآله ، ومبالغة فى تقديس الحق فى كل شىء ، وأعلانه بغير موارد ولا مذاراة — وانى لأحسب يامولاتى ان النقلة من طيبة الى

« اخيتاتون » ، وانشاء تلك العاصمة الجديدة بعد ان لم تكن ، قد كفلت للفن الجديد الصادق الحر أن يجد الميدان الفسيح للابداع في غير تعثر ولا تردد ...

— طبعاً ! لقد أنشئت العاصمة انشاء .. فخططت وبنيت معابدها وقصورها على أساس الفن الجديد ، الذى يجمع بين البساطة والجمال فى آن واحد

— وزينة القصور ؟

— تلك هى الطفرة الكبرى ! فقد اختفت مناظر الجبروت والخضوع ، وبرزت مكانها مناظر الطير والحيوان والسمك والزهر ، ونور الشمس الباهر يغمرها ، وهى ترح فيه سعيدة ناعمة ... ثم صور فرعون وآله فى مجالسهم ، وفرعون يداعب ، أو يسمر ، أو يمد يده بكأس نحوى فأملؤها له من قدر خمر فى يدي ، و بنت من بناتنا تقدم له شيئاً فى طبق على راحتها ، وأصغر البنات تحمل اليه أعواداً من الزهر المونق ...

— ما أجمل وما أبدع ...

— وأجمل من هذا ان جميع عيوب فرعون وأهله تظهر فى ذلك الرسم بكل وضوح ... فالحق والجمال شيء واحد لا يتجزأ ...

— وهل رضى عن هذا رأى أصحاب الفن ؟

— ويحك ! وهل يرفض الفنان الحق الحرية فى الاداء والتعبير ؟ ان الفنانين كانوا قبل ذلك اليوم مغلوبين على أمرهم ، مرغمين على صب أعمالهم فى قوالب التقليد والمداراة والتكلف ، ارضاء لضيق أفق السادة ، بل الآلهة من فراعين مصر ...

وهزئت رأسى يئمة ويسرة بحركة خفيفة ، ولكنها لم تفت عين الملكة .. فسألتنى ماذا يدور برأسى ، فقلت :

— لا شيء ذو بال يا مولاتى .. انما هو خاطر هين ...
— وما هو ؟

— ذلك التوحيد، وذلك الولوع بالحق .. فلا شيء الا «الحق»
يشغل هذا الانسان العظيم ، لا عن ذكاء وكفى ، فما يقوم
الذكاء بكل هذا القسط من الادراك الذوقى الرفيع ، بل عن
المعية الروح ونفاذ البصيرة ، فانه وعى الكون الى الاعماق،
فتجاوبت معه نفسه ايمانا بعظمة الموجود الكامل ، وانفعالا
بدفعات الحياة من حزن ونشوة وفرح ومجبة .. فكيف
اجتمعت هذه الرقة التى لا مثيل لها ، وتلك الصرامة
والصلابة التى سولت له ان يضرب الضربة الكبرى ؟ فان
تحدى الكهان من رهط آمون هول ليس كمثله هول ...

— ذلك تمام الايمان بالواحد الحق ، فان شجاعة الايمان هى
تمام الايمان ، وكان ايمانه — علم الله — فى اوج التمام ، فأحب
ورق عن قوة نفس ورهافة حس ، لاعتن ضعف ورخاوة .
وقاوم وصمد وتحدى عن قوة نفس أيضا ورهافة حس ،
لا عن قسوة وشرة : لأن الحق هو دافعه فى الحالين على
اختلاف المظهرين

تمام التوحيد

فقلت للملكة :

— الآن فهمت السر الكامن وراء اجتماع الصلابة والرقة
والطيبة المتناهية فى شخص اخناتون .. ولكن ثمة شيء
يحيرنى ولا أكاد أجسر على استيضاحه .. لولا انه لا حياء
فى العلم

— لا حياء .. لا حياء ...

— انها مسألة أولاد فرعون ...

— أى أولاد ؟ انه لم ينبج الا سبع بنات ماتت واحدة
منهن وبقيت ست ...

- مولاتى ! هذا موضع الحرج ...

- وفيه الحرج ؟

- قيل انه أنجب من غيرك من نساء الحريم ولدين على الأقل : سمنخ كارع ، وتوت عنخ آتون ...

- وى ! انها لكبيرة من الكبر ...

- ألم تكن بين يديه وتحت يمينه القيان والسرارى ؟

فحملت الملكة فى وجهى مستغربة وقالت :

- ان من يقول هذا أو يصدقه فقد جهل « روح »
اخناتون ، واخناتون روح ، وروح عظيم . انه رجل فطر من
حسن مرهف ونفس شفافة رفاة كالزهر ، سمت فطرته
الى الحق الاسمى ، وصفت سريره فنذت الى كنه الوجود
المطلق .. فهل يكون هذا الرجل أخا نزوة ، وأسير شهوة ؟
انه صاحب التوحيد ، فى الفن والحياة ... وليس مثله من
ينوء تحت غرام الشهوة . لقد كان اخناتون موحدا فى كل
شئ ، ولاسيما فى هوى القلب ، لأن الايمان والحب عنده
شئ واحد ، والجسد عنده وعاء الروح ، وما كان أرقه من
وعاء ثقلت عليه الادواء ، بما ورث وما كلف نفسه من عناء
على السواء ... فلا تحسبن اخناتون كان يتشهى امرأة
سواى ، أو يتدلى الى خيانة حبه لى ، وانه لشديد
- ولكن الناس لم يدرجوا على اعتبار التعدد أو التسرى
خيانة !

- وهم أيضا لم يدرجوا على اعتبار الوثنية كفرا والحادا !
ولكنها كانت كذلك عند اخناتون ... فليس مثله من
يستعير مقاييسه الخلقية والوجدانية من أحد .. والحب
عنده لا يمكن لهذا أن يتعدد ، ولا أن يستبدل الذى هو
أدنى بالذى هو خير ، فيعرف امرأة لأنها أنثى ، بعد أن عرفنى

كما يعرف الانسان الانسان ، بالروح والوجدان لابعض نزوة
جسد شهوان ...

— ما أشقانى بهذا الذى نقلت اليك ...

— هوننى عليك ! ودعينى أهمس فى أذنك ان اخناتون
الذى سجل حياته سافرة كان حريا أن يسجل هذا التسرى
المثمر ويعلنه على رؤوس الاشهاد ... لولا انه لم يكن قط

والعرش ؟

فقلت متحيرة :

— ووراثه العرش ؟ ألم تخطر له ببال ، وألم ترد لك على
خاطر فتدفعيه الى التماس الولد التماسا ؟

— كلا ! لم يحزنا ذلك الامر ، لأن اخناتون كان قد حسمه
واستراح الى قراره فيه .. فقد كان هناك سمنخ كارع ،
الذى كان عنده عوضا عن الولد ، وبوضع الولد ...

— ابن من هو اذن ؟ لقد قال آخرون انه أخوه الصغير ،
وانه لهذا كان يدلله ويقبله ويضمه الى صدره ... حتى
ارجف المرجفون ...

— ألا ساء ما يتوهمون ! أتذكرين أبا اخناتون الاكبر ،
وأخى أنا أيضا ، الذى سمي « تحتمس » وجعله والده
كبيرا للكهان فى منف ، ووكل اليه شؤون الثقافة والمعابد فى
أقطار مصر ، ثم مات فى ريعانه ؟

— أجل أذكره يامولاتى ، وأذكر ان اخناتون خلفه على
ولاية العهد

— هذا هو والد سمنخ كارع ، الذى أحبه اخناتون وتبناه
ورباه مع بناته وكان برا به ليهون عليه مراة اليتيم الباكر ...
ثم زوجه من كبرى بناته ليرث من بعده العرش ...

— وتوت عنخ آمون يا مولاتى ...

- هذا فتى من النبلاء أنسباء الاسرة ، اصطفاه وزوجه
من ابنته الثانية ... وذلك تأويل ما لم تعلمى ...
— ألا شد ما يظلم الناس كبار الرجال أحياء وأمواتا ...
— بل يظلم الكبار أنفسهم ، أو يظلمهم قدرهم الذى
خلقهم عمالقة فى بلاد الاقزام !



محنة الأميين

القمة الباردة

واستأنفت الملكة حديثها عن زوجها الملك ، فقالت :

— حمل اخناتون عبء رسالته سنة بعد سنة ، محدثا بذلك أعجب ثورة حدثت أو تحدث قط في تاريخ هذا الكوكب : فقد ألف الناس أن يثور المحكومون على الحاكمين طلبا لحق مهضوم أو ردا لعدوان غشوم . ولكن ثورة هذا الثائر الفذ كانت ثورة حاكم لا ثورة محكوم ، ولم تكن تهدف الى تعزيز السلطان ، بل الى تغيير أساس السلطة ونظام الحكم لمصلحة المحكومين أنفسهم . كانت ثورة مثالية لتحقيق الحرية ، بل لاقامة النظم الاشتراكية . والمفروض في الثورات أن يتحمل الثائرون أعباءها لمصلحتهم ومصلحة طبقتهم ، فاذا بثورة هذا الثائر الفريد تنصب على حقوقه وحقوق فئته من الفراعين . فقد ولد لها فأبى الا أن يصيح في آذان الناس : انى بشر فلا تعبدونى ، واعبدوا ربى وربكم . وكان الناس يرون أن أهم صفات الرجل العظيم — وفرعون رأس العظماء اطلاقا — شدة البأس والجبروت والقهر ، فاذا هو يعلن على الملأ أن خاصة العظمة هى الحب والرحمة لا الجبروت والبأس . وأن صفة العزيز أنه الحكيم الرحيم ، لا القاهر الغشوم .. فكان أول من نادى بتعاليم المسيحية قبل المسيح بثلاثة عشر قرنا ، وقبل الموسوية بزمان طويل . فكان الرائد الذى لم يسبق ، وظل قرونا طوالا لا يدرك ولا يلحق .. بل أن حلمه الرائع ظل الى اليوم دون أن يتحقق !

— انها عبقرية الذوق المرفه والالهام الرفيع ...
— هى العبقرية أجل .. وما من عبقرية الا وعليها ضريبة

تصاعدية ، تزداد بمقدار عظمتها وتفردها . وأقصى هذه
الضرائب على الاطلاق هى « القمة الباردة »
— وما هى القمة الباردة ؟

— هى الوحشة التامة الناجمة عن التفرد والانقطاع فى علو
شاهق من آفاق الروح والفكر لا يشرك المرء فيها أحدا من
الناس . . . وكلما ارتفعت هذه القمة عن زمانها وبنى جيلها
كانت العزلة أكمل ، والوحشة أتم . فتقطع بين العبقري
وبين أبناء جيله الاسباب ، فهو فيهم وليس منهم ، وبينهم
وليس مثلهم ، ولا هم مثله فى أخص خصائصه التى من أجلها
يعيش . وهى مبادئه ونظرته الى الكون والحياة

خطأ الأريب

فقلت للملكة :

— ان العبقري لا يخلو من التبعة كل الخلو فى هذا الشقاء
الذى يعانيه بانقطاع الناس عنه وانقطاعه عنهم فى « القمة
الباردة » . . .

فسألتنى الملكة فى دهشة شديدة :

— وكيف ؟

— ألم يتبين منذ البداية أنه بعد عنهم وكلفهم فى مرتقاه
ملا طاقة لهم به ؟ فكيف اذن يلومهم بعد ذلك كأنه يجهل
حقيقة موقفه منهم ؟

— وما الذى أنباك انه يتبين منذ البداية صعوبة المرتقى
على أهل زمانه الذين يعنى نفسه بتبشيرهم وتبصيرهم ؟

— وكيف لا يتبين ذلك وهو الفطن الأريب ؟

— لانه فطن أريب ! ألا تذكرين قول صاحبك أبى العلاء :

وأعجب منى كيف أخطىء دائما

على أننى من أعرف الناس بالناس ؟!

كذلك كل عبقرى أريب .. فانه يحسب الناس جميعا خلقوا على غرارهِ ، أو هم على الاقل لا يختلفون عنه اختلاف الطبع الاصيل ، وانما هى اختلافات فى العرض لافى الجوهر ..

ومن هنا يأتى خطأ العبقرى فى فهم بنى جيله .. فهو يحسب طريقة احساسه وتفكيره هى الطريقة البديهية التى لا تحتمل الخلاف ، وانه يكفى التنبيه اليها ليثوب اليها كل من شذ عنها .. وتعمل الحماسة للفكرة والعقيدة على خداع صاحبها ، فلا يتبين مدى البون الشاسع بينه وبين سائر الخلق ، حتى ينقضى زمن طويل ، فاذا هو مخدوع طالت عليه الخديعة ، واذا من يحسبهم حوله أو قريبين منه بعيدون جدا ، واذا به وحيد فوق « القمة الباردة » بغير أنيس ولا شريك ... فيحس بالمرارة وخيبة الرجاء ، وقد يستولى عليه القنوط من اداء رسالته

— واهاله !.. ولكن لماذا يهتم العبقرى كل هذا الاهتمام بالناس ؟..

— هذا يا بنية داء العبقرية ، على اختلاف فى الدرجة والشدة : فعباقة الفنون والفلسفة يتركون للأجيال القادمة أعمالهم ويضعون فيها أملهم ، فلا يسرع اليهم القنوط ، ولا تبلغ منهم المرارة كل هذا المبلغ ، أما عباقة العقائد ، فلا سبيل لهم الى التغاضى عن أنفضاض الناس عنهم .. لان الناس هم « موضوع » رسالتهم و « الوسط » الضرورى الذى لا يمكن أن تتحقق بدونهُ تلك الرسالة .. وذلك ما وصل اليه اخناتون بعد سنين من التبشير والكفاح الذى لا ينقطع ، فكان ذلك أقسى عليه من المرض، ومن آلام الجهاد العنيف الذى يثقل على من خلق مثله كارها للعنف بفطرته

خيوط المؤامرة

فسألت الملكة فى شىء من الدهشة :

— ولكن لماذا طالت هذه المدة ، فلم يفتن اخناتون للحقيقة قبل ذلك الوقت المتأخر ؟

— لانه كان يا بنية ضحية مؤامرة محبوكة الاطراف ...

— مؤامرة ؟ ومن دبر هذه المؤامرة ؟

— لا أحد . . . انه القدر ، وليس مثل القدر اذا أحكم ما دبر .

فقد اتلفت عناصر مختلفة واجتمعت على خداع اخناتون . فهو رسول دين ، ولكنه ملك الارضين . . . وهو ملك نافذ السلطان ، ولكن رجاله من طراز خلقه خلقا ولم يكونوا من قبل أهل حكم وسياسة . . . ففيهم الغر ، وفيهم الوصولى ، وفيهم من يأكل على المائدة ، ويضلع مع كهنة آمون ، وفيهم من يتهم اخناتون بالغفلة — لانه لا يفهمه — ولكنه يستغل هذه الغفلة للشراء والتقدم فى المناصب . فأولئك كلهم خدعوه . . . وخدعه كذلك معظم المخلصين من أنصاره ، لانهم كانوا يحسبون لحماستهم أن دينهم انتصر وانتشر حقا ، أو لانهم كانوا يحبونه فلا يريدون ادخال الحزن على قلبه الكبير بتشيط عزمه واثقال همه . . . فظل يجهل حقيقة موقف الناس منه ، وحقيقة الاضطرابات التى نشبت فى الامبراطورية ، حتى ساء الموقف فيها ، فلما علم بالحقيقة ظل محيرا لا يدري ما يصنع : فانه قادر أن يبطش ، ولكن « أزمة ضمير » فريدة فى نوعها استولت عليه : أينكر مبادئه ومثله العليا التى ينادى بها فيقهر ويرغم على الخضوع من ثار وخان ، أو يبقى على مبادئه ومثله ويفرغ لتوطيد الدين الحق فى مصر أولا وقبل كل شىء . . . حتى سبق السيف العزل ، وسقطت « طونيب » ، وزالت الراية المصرية عن بلاد الشام ، وأوغل الحثيون فى الارض ايفلا ينذر بالآخطار الجسام

كشف النقاب

فقلت للملكة :

— كل هذا مفهوم ، ولكنه لا يفسر كيف صحا اخناتون في وقت معلوم على صوت الحقيقة الصارخة الذى ظل لا يسمعه ، وهو هو المبشر بالحق يتحراه ولا يريد عنه بديلا ؟ ..

— صحا على صوت مؤامرة أخرى ...

— من صنع القدر أيضا ؟!

— من صنع البشر لا من صنع القدر .. فقد دبرها رجال آمون ، وسعوا الى تحقيقها مستعينين برجال من حرسه الخاص ...

— انه سحر المال ، واغراء الذهب ولا شك ...

— لا أظن ! فان المال لا يغرى جنديا على تعريض حياته للخطر المحقق بقتل ملك ، وأى ملك ؟ فرعون مصر !

— ماذا اذن أغراهم أن يركبوا ذلك المركب الصعب ؟

— ما هو أغلى من الحياة عند مثل هؤلاء ... فهم من رجال الجنوب ، من أهل القبائل التى لا تزال على الفطرة . وهم لا يفهمون ولا « يهضمون » فلسفة اخناتون الروحية ، ولا شك أنهم كانوا ينظرون الى ظواهر أعمال اخناتون فى حياته الخاصة والعامة ، من التبسط والتحرر ، نظرتهم الى المجون والخلاعة التى لا تليق بالملك ، وتخدش العرف والحياء .. ولا سيما ان دعايات كهان آمون ، ورجال المال ، كانت كلها مسخرة لتشويه سمعة الملك ...

— وكيف يتركهم الشرطة يذيعون هذا ؟ ..

— لان سلاح المقاومة دائما فى هذه الحالة هو الجماعات السرية . ولا يعجز قوم مثل كهان آمون لهم منظمات وحول وطول وأشياء وأتباع ان يبثوا الدعاوى السرية فى كل مكان

.. ويضاف الى ذلك أنهم أصحاب السلطان الروحي الموروث
المألوف ، والناس عبيد ما ألفوا ...

— وكيف اذن نجا فرعون من المؤامرة ؟

— لان قوما آخرين ممن لمست قلوبهم طيبة فرعون وشوا
بالتآمرين فضبطوا متلبسين ، وحوكموا ، وعوقبوا أشد
عقاب .. وحمد الناس جميعا يد العناية التى حمت فرعون،
الا فرعون نفسه ، فان وقع هذه المؤامرة على نفسه كان
حاسما لانها دلته على حقيقة المخبوء وراءها . فلم ينطل
عليه قول القائلين ان سلطان المال هو الدافع الى القيام بها .
ولم يفارق ذهنه منذ ذلك اليوم معنى هذه المؤامرة ، وبدأ
ينظر الى من حوله بعين جديدة .. فاكتشف خبيثة نفس
الكثيرين منهم ، فأقصى من أقصى ممن كان قد رفعهم . ولكنه
كف بعد ذلك عن الاقصاء والعقاب ، عند ما رأى الداء أشد
انتشارا مما كان يقدر ، فبلغ منه التفرز حد عدم الاكتراث
.. وعدم الاكتراث صنو القنوط

ضعف الأمين ..

وبدا الاسف واضحا على وجه الملكة ، فقلت لها :

— ان القنوط أشأم ما يصاب به انسان ، ولا سيما
أصحاب الرسالات منهم .. ولكن أين قوة الايمان ؟ ..

— ليس قنوط هذا الطراز من البشر عن وهن في ايمانهم،
وان بدا كذلك . وانما هو على العكس مما يبدو لاول وهلة،
نتيجة لازمة لقوة الايمان ، وقصور وسائل الامكان . أليس
المسيح بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا قد عانى من اليهود ماعانى،
حتى صاح ينادى ربه : «الهى ! الهى ! لماذا تركتنى ؟» ...
فهو يستنجز ربه ما وعده به من نصر . كذلك كان قنوط
اخناثون ... انها موجة التشاؤم من الناس ، لا من الحق
الذى يدعو اليه ... وقد كان تشاؤمه شديدا جدا

— وأنت يا مولاتى ؟ أنت ؟ كيف يؤس وأنت الى جواره ؟
ألم تكونى مؤمنة به كل الايمان ؟

— ما فى ذلك ريب ! وكان يعلم هذا . ولكنه لم يبعث رسولا الى نفسه ، فانما يبعث الرسل للناس . وانا عند اختاتون صنو نفسه بشريعة ذلك الحب الفريد الذى ربط بين قلبينا ، بل وحد بين روحينا فكنت أنا بايمانى به غير قادرة على عزائه ، فى حين كان ينبغى أن أكون موثله عزائه

— يا للرجل المسكين ! . .

— تلك حقا كانت كلمة كل من أحبه فى ذلك الظرف الدقيق ، حتى أن أمنا الملكة تى أسرعت اليه من قصرها شرقى طيبة لكى تطمئن عليه ، وتسرى عنه بعض التسرية مما يجد ففرح بزيارتها التى لم تعش بعدها طويلا ، وتركته يجتر آلامه ، ويشكو الى الله « ضعف الامين وقوة الخائن »

وسكنت الملكة لحظة ، فاحترمت صمتها حتى عادت الى الحديث :

— لقد رأى نفسه فى مفرق الطرق : وما من طريق منها يؤدى الى السعادة وراحة النفس ، وانما هما طريقان ، وحديث نفسه فى أمرهما كقول أبى على بن الرومى :

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج

طريقان شتى : مستقيم وأعوج !

وأصعب ما فى الامر أن الطريق المستقيم ليس أحلى من الأعوج مذاقا

— وما الاعوج وما المستقيم ؟

— أما الاعوج فهو التخلي عن الحياة ، وقد تعذرت عليه حياته ، وعاف أن يعيش فى دنيا لا تفهمه ولا تستجيب

لدعوته الى الخير . . وأما المستقيم فهو الانطواء على نفسه وترك الدعوة

— وكيف ذلك ؟ . .

— بترك العرش « لسمنخ كارع » ولى عهده وزوج ابنتنا الكبرى ، وهو ابن أخيه تحتمس الذى توفى فى منف . . ثم يعيش معى ومع البنات والانصار المختارين فى ظلال الدين الجديد ، فى شبه دير من الاديرة التى عرفت فى مصر على عهد المسيحية . . .

وسكتت الملكة فجأة ، وقد لمعت عيناها . . ثم لم تلبث أن قالت :

— من عجب انه كتب على مصر أن تكون أول بلد يعرف الاديرة والنساك فى الصوامع . . . لماذا ؟ لانها عرفت استقلال الرأى الذى لا محيص لصاحبه أن يعتزل الناس ، لينجو بنفسه وعقيدته من القنوط ، أو من الموت ، أو مما هو شر منهما وهو المسخ أو الابتذال ؟! . .

البداية والنهاية

تأليف

روح ولا جسم . . .

وفجأة رأيت نفسى على مشارف الصحراء ، فسألت الملكة
فى دهشة :

— وى ! الى أين ؟ وأين نحن الآن ؟

— اننا يا بنية حيث وقف التاريخ من خبر اخناتون . .
فمبلغ ما وعى الدهر من أمره بعد ما تقدم ، أن سمنخ كارع
خلف اخناتون على عرش مصر . . اما أين ذهب اخناتون ؟
وهل مات أو قتل ؟ ولئن مات أو قتل فأين جثته فيما حفظ
الدهر من أجساد الاجداد؟ . كل هذه أسئلة لا يجد التاريخ
عليها جوابا . فقصارى ما يعرف التاريخ من هذا الامر أن
أخناتون أطلع فى ظلمات الماضى نورا ثاقبا ، ولكنه كان نورا بلا
نار ، وحرارة بلا أوار . وان ذلك الروح العظيم رحل عن
الدنيا فلم يخلف وراءه جسما محفوظا ، كأنه كان روحا بلا
جسم

فقلت فى أسى وخشوع :

— مولاتى . تقدست آلاء الله . . ألا ما أحسن مقالة ابن
الفارض فيه :

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوا
ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
وانه لكلام بديع وغزل رفيع ، وانه لمن الجيد القليل فى شعر
هذا الشاعر المتصوف

— هو شعر جميل حقا ، ولو كانت العربية لسان اخناتون
لقال مثل ذلك أو ما فى طبقته

— بل أن اخناتون يا مولاتى قال فى الذات العلية شعرا من
أعلى طبقة فى الشعر العالمى فى جميع اللغات ، وفى جميع
العصور . وليس فيما حفظ منه سطر واحد من سقط

القول ... ولكنى يا مولاتى أرى فى النفس حاجة لم تنقض .. أصرح بها أو أكتمها ؟ .

— سيان ! فانى عرفتها ، ولاقضيئها .. وانما أردت أن أوفر عليك تعباً وعناء قليل وقال فى غير ذى بال ... انك تريدين معرفة اليقين عن نهاية اخناتون ...

— ذلك والله ما عنيت : فانى أريد أن أعرف كيف ودع الحياة ذلك الروح العظيم ، أعظم روح خطرت تحت سماء مصر منذ الازل ...

— سأروى هذا الشوق ، ولكنى أخشى أن رويته للناس أن يقال أضغاث أحلام ونسيج أوهام

— لا عليك مولاتى .. فما على الحالم بأس اذا استعصى الواقع الملموس على طالب المعرفة

من هنا نبداً

فقالت الملكة :

— أذن من هنا نبداً ..

— نبداً ماذا ؟

— نبداً طريق النهاية ، التى خالها اخناتون طريق البداية . ففى هذا الموضع على باب الصحراء وقف ذلك الانسان اخناتون محيراً يسأل الفجر ويستشف من أنواره نورا لضميره الحائر : أيظل ملكاً ، أم يخلص للنبوۃ ؟ وهل هو نبى حقاً ورسول معزز ، أو هو « صوت صارخ فى الآفاق ، أن افتحوا قلوبكم لنور الله الذى يزعم أن يشرق ... »

— لقد بدا يشك اذن ...

— أجل ، ولكن فى نفسه لا فى رسالته ، فى عمله لا فى إيمانه ، فقد تبين له أن الايمان لا يلقى الى الناس من أعلى ، من حكاهم ، بل يجب أن يخرج من أعماقهم فيرتفع رويداً رويداً ،

حتى يغمر القمة كما غمر القاع . ومن أجل هذا أيقن أن الشعب هو البداية ، وأن التبشير بالحق يجب أن يبدأ من هنا . . . من لا شيء ، من الداعية المجهول بين الناس ، ومن البرية ، ومن الريف ، ومن الصحراء ، يزحف على المدينة وعلى القصر . . . ولكن شيئاً واحداً وقف كالغصة المعترضة في الحلق . . . ذلك هو أنا . هل يتركني وحيدة بلا معين ؟ هل يدعني وبنياتي للمخاطر والاهوال ؟ أيا من على من أعدائه وأعدائي ؟

واضطرب صوت الملكة ، واختلج بدنها وهى تقول بعد صمت قليل :

— وشهدته أنوار الفجر في هذا المكان ، واقفا ينظر الى الافق ، منكس الرأس ، محزون الفؤاد ، وفي عينيه الصافيتين دموع تنحدر على خده الناحل في صمت . . . أجل في صمت ، ولو كان للعواطف والاحاسيس صوت لسمع في صدره كهزيم الرعد في ليلة عاصفة . . .

وسكتت الملكة برهة أخرى ، حتى هدأ جأشها . . ثم قالت بصوت تبدو فيه العزة والزهو :

— وأخيرا انتصر الواجب ، وكانت للايمان ورسالة الحق الكلمة العليا . . . وعاد اخناتون الى القصر بعد صلاة الصباح الباكر مطمئن النفس ، فنام الى الضحى ، ثم كتب رسالة الى « حور محب » قائد الجيش في منف أن يكون على أهبة السفر الى العاصمة لحماية ولى عهده . . .

— ألم يكن حور محب على دين آمون في دخيلة نفسه ؟

— بلى ! ولكنه كان رجلا . وكان اخناتون يقدر أن آمون يجب أن يسترد السلطان ، حتى يتسنى له في حياته الجديدة أن يتغلب عليه ، لان تحدى السلطان أحب الى الناس من ممالأته !

« فلما كان المساء . . خرج الملك وحده كما كان يخرج أحيانا ،

وقبلنى وقبل البنيات ، ولكنى لم أحسب أنها قبلة الوداع
الاخير ... وابتلعه الظلام فى الصحراء ، فى ثياب كان قد
أعدها فى المعبد لهذا الغرض ، فبدا درويشا من دراويش «أون»
دين الشمس القديم الذى كان يعبد فى هليوبوليس «
- وترك القصر فارغا ؟

- أجل ! تركه فارغا ، بعد أن وضع فى يد « آى » قائد
الحرس ووالد مرضعتى رسالة الى « مريعر » كبير كهان
آتون أن يعلن فى الناس وفاته ، وتولية ولى العهد سمنخ كارع ،
وان جثته حنطت فى مكان حريز حتى لا تتعرض لانتقام كهان
آمون وسحرهم ، وكان سحرهم مضرب المثل عند العامة ..
- وهل طابت نفسه بتركك ؟

- بل طابت نفسه بالفداء وخدمة القضية الكبرى ، قضية
الله ، متجردا من كل ما كان له فى الدنيا من سلطان ، ومال ،
وولد ، وغرام

- ما أهوله من فداء لم تحفظ مثله الايام !..

- هيهات أن يقدم على مثله أحد قط ، ألم يولد ملكا
فآثر الفاقة ، وغنيا فآثر الخصاصة ، وأبا فآثر العقم ، ومحبوبا
فآثر الحرمان ، وعزيزا فآثر الوحدة والمهانة ؟!.. وراح يبغى
نجوة من كل نعم الدنيا ، فى سبيل نعيم الروح الذى لم يؤمن
به سواه ، ولكنه كان عنده أوثق وأثبت وجودا من التاج ، ومن
الجيش ، ومن كنوز الارض ، ومن الحبيبة والولد ... والولد
من دواعى الجبن والبخل ، الا عند من عصمهم الله واصطفاهم
لدعوة الحق فطهرهم من زغل الدنيا وفتنتها تطهيرا ...

- كذلك اذن مضى اخناتون ؟..

- أجل ، مضى ناجيا بدينه من دنياه ... ومهاجرا من الملك
الشاسع والجاه العريض الى كنف الله ...

- سلام على اخناتون .. وفى حفظ الله ...

غاية المسعى

وضحكت الملكة ضحكة حزينة ، ثم أجابتنى :

— راح اخناتون يبشر بالوحدانية متنكرا ، فى أسواق الريف ، وفى جموع الناس عند الغروب أمام المعابد... يأكل مما يقدم له ولو كان من نفاية الطعام ، ويشرك معه فيه كلبه الذى تبعه فى مهجره مثل ظله ..

وسكتت الملكة ، كأنها تسترجع ما غاب، ثم هزت رأسها فى أسى وقالت :

— ما أشبه الليلة بالبارحة ! ان التعصب آفة البشرية التى لا آفة مثلها . فهذا شاب من المتحمسين لآتون ، ولاخناتون ، دون أن يراه رأى العين قط ، يشعر أن « الدرويش » يردد معانى فرعون الذى « قضى » ، فيضيق بهذا التقليد — ولا سيما أن الدرويش كان يتحاشى ذكر اسم آتون واخناتون ، وكان يتكلم فى التوحيد والمحبة عموما — وقام برأس الفتى المفتون أن « الدرويش » يريد أن يفتصب شرف التبشير بالوحدانية من اخناتون .. فقام اليه وهو نائم فى العراء تحت شجرة فذبحه ذبح الشاة ..

وأشرقت الشمس على جثة بلا رأس ، لان الفتى أخذ الرأس وألقى بها فى النهر .. ولم يبك أعز البشر فى زمانه ، أحد الاكلبه الذى جعل يقطع سكون الليل بعوائه الحزين... وكذلك مضى رجل المحبة ، والسلام ، محروما من المحبة ومن السلام ، بيد واحد يحسب نفسه ويحسبه الناس نصيرا مخلصا لرجل المحبة والسلام...

— وأسفاه ! ما أشبه الليلة بالبارحة حقا...

— وكيف لا يا بنية ؟ والانسان هو الانسان ، وانه لجهول، وأنه لظلوم...

— « ان الانسان لفى خسر » .. وصدق الله العظيم...

کتابخانه الله

فى مهب الرىح

وعلى صخرة ناتئة فى سهل الصحراء المترامى جلست الملكة .. وجلست صامتة فى انتظار خروجها من صمتها . فلما طال بها الصمت قلت لها :

— وماذا كان من أمرك بعدها ؟

— وماذا يمكن أن يكون من أمر ريشة فى مهب الرىح ؟ .. لقد كان خبر موت الملك صدمة لى حين زعمه مريع للناس كأمر فرعون ، فصدقته ... ولكنى رأيت حور محب يدخل القصر فجأة ، فأيقنت أن رسالة زوجى وملكى وشقيقى فى خطر ، فكدت أجن . وكانت عقيدته قد جعلت فكرة العالمية والانسانية غالبة على فكرة الوطنية ، أليس الله الواحد اله الناس كافة ؟ فخطر لى أن أدعو ابن أمير الحثيين لدخول مصر ، فيتزوجنى اذا شاء أو احدى بناتى ، حتى يصون دين آتون وينشره فى مصر وفى بلاده أيضا ثمنا للعرش .. فيصان الدين ، ويعز جانبه ، ولا يعود الأمر الى كهنة آمون ، وأنا أعلم أنهم لن يرحموا حزينا، ولن يرحموا أسرتنا من الانتقام الرهيب ، أو كذلك خيل الى الوهم ...

— وهل فعلت ذلك حقا يا مولاتى ؟

— اجل فعلته .. ولكن فراسة اخناتون كانت أصدق من فراستى ، فقد كان خبيرا بالرجال ، وكانت ثقته بحور محب ثقة صائبة .. أو قولى أن مصر كنانة الله فى أرضه ، من أرادها بسوء قسم الله ظهره ...

— وهل قسم الله ظهر من أرادها بسوء ؟
— اجل ! فقد كان حور محب يراقب كل شىء فى الخفاء ،
فوقع فى يده خطابى ، فلم يعوقه ، بل تربص على الحدود
حتى اذا أراد ابن أمير الحثيين أن يعبرها الى مصر ، ذبحه
وحاشيته ذبح الشاة ، ونجا لمصر مجدها . . . واستقر الملك
لسمنخ كارع ما عاش من أيام الدنيا . . .

الوحدة القومية

— ولكن كيف علمت يا مولاتى حقيقة ما حدث لزوجك
اخناتون ؟
— لم أعرف الحقيقة فى حياتى ، وإنما عرفت بعد أن فارقت
الدنيا

— ورسالة اخناتون . . من الذى حملها الى الناس ؟
— لم يحملها أحد . . حتى بعث لها الله من رسله من
بعث . . . فقد عادت عبادة آمون الى الحياة ، مكتسحة فى
طريقها كل ما أنشأ اخناتون ، فان حور محب رأى ان نجا
مصر من الخطر الخارجى لا يمكن الا بالقضاء على الانقسامات
الداخلية ، فنصح لسمنخ كارع أن يعيد عبادة آمون ، ليوطد
سلطانه على العرش . . . فصدع بالامر ، وتحققت الوحدة
القومية ، وتسنى لمصر أن تسترد مع الايام مجدها وهيبته
فى الشرق

فسألت الملكة فى تلعمش :

— وأنت يا مولاتى ؟ كيف تركت الدنيا ؟ وأين جسمك
من هذه الارض ؟

فوجت نفرتيتى لحظة ثم قالت :

— وماذا تنتظرين أن أفعل ، وقد فقدت كل شىء ؟
فقدت الرجل الذى أحبته وأحبنى ورفعنى فوق كل مقام ،

وفقدت عطف ابنتى وزوجها الملك الجديد لأننى أردت أن أوطىء عرش مصر رجلا غريبا . وفقدت عطف قومى جميعا لهذا السبب :

« والناس من يلق خيرا قائلون له

ما يشتهى ، ولأم المخطيء الهبل !

« فكان لأمى الهبل يابنية، وصرت منبوذة بعد عزة ، وبدأت أشعر بمدى الفراغ الذى خلفه فى حياتى زوجى وشقيقى وحبيبى اخناتون »

وسكتت الملكة لحظة ، ثم رفعت رأسها الى وقالت :

— وفى ذات ليلة من ليالى الصيف القمراء ، خيل الى انى أسمع صوت اخناتون آتيا من الصحراء ، يدعونى اليه فقلت : (لبيك . لبيك) وتجرعت السم وانطلقت روحى اليه

« فلما أقبل الصباح ، وعلم القاصى والدانى خبر موتى ، انفجر رجل الغضب العام ، ورفض الكهنة أن أحظى بما يكرم به الموتى من التحنيط فعاد التراب الى التراب » وكأنما رأت الملكة وجومى لهذه النهاية ، فأجبت أن تسرى عنى ، فقالت وهى تبتسم :

— ولكن المحظوظ فى الدنيا محظوظ فى الآخرة ، ولو فنى جسده وصار ترابا . فقد لقيت فى حياتى من الحب ما لم تلق امرأة ، حتى اذا صرت تمثالا صارت لى من الشهرة ما لم يشتهر به تمثال ، وسرقنى السارقون كما سرقت هيلانة بطلة حروب طروادة ولم تنته مغامراتى الغرامية بالموت ! .. كلا ! فقد استحدث لى الدهر عاشقا فى برلين — عاشقا فى برلين ؟

— اجل ! .. انه الفوهرر ، هتلر

— أأهنتك به يا مولاتى أو .. ؟

— لست أمزح . . فقد كانت لى فى برلين قاعة خاصة على الطراز الفرعونى ، وكان هتلر لايجد متسعاً لزيارة المتحف نهاراً ، فكان يزوره ليلاً ، فشاع بين الناس أنه يعشقنى ، وأنه يأتى لزيارتى تحت جناح الليل ليأمن عيون العذال !

خاتمة المطاف

ووضعت الملكة يدها فوق كاهلى ، وهى تهتم بالانصراف وقالت لى : « لا أحب أن أفاركك يا بنية قبل أن أقول لك كلمة أخيرة ، هى محصل كل هذا العناء الذى لقيه اخناتون ، ويلقاه كل صاحب رسالة فى دنيا البشر :

« لكل شىء فى الحياة أوانه المرسوم ، وطوره المعلوم . ولن تقوم قائمة لأثبت الدعاوى وأحقها فى غير أوانها ولو أيدها أعظم ما فى الأرض من سلطان . . . وقد كانت صحيحة اخناتون خطوة قبل الاوان . ولا تزال كل دعوة من قبيلها سابقة للأوان . . . »

فقلت أسألها : « ولماذا تظهر الدعوات قبل الاوان ، اذا لم يكن مقدراً لها الا الخذلان ؟ لماذا يشقى بها أصحابها وهم لا يريدون بها الا الخير لبنى الانسان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ » ولم أتلق جواباً الا ابتسامة باهتة من الملكة ، تلاشت بها صورتها . . .

وفتحت عينى ، لالقى الدنيا بهذا السؤال :

— لماذا يشقى دعاة الخير فى عالم هو الى الخير فقير ؟ . . لماذا ؟ لماذا ؟ والى متى يارب هذا الضلال ؟ . . اعطنا يارب مزيداً من النور . وأنر لنا قبل ذلك قلوبنا حتى لا ننكر للنور . . .

فهرس

صفحة

٥		مقدمة
٩		بين عالمين
٢١		والد وما ولد
٣٣		تبعات الملك
٤٥		أبهة الملك
٥٩		التابع والمتبوع
٦٩		آية الله
٧٩		على مائدة الأجداد
٨٩		المرأة والبيت
١٠١		حريم فرعون
١١١		مجتمع النقائص
١١٩		حصاد الشهوات
١٢٥		مات الملك .. عاش الملك
١٣٩		النور الجديد
١٥٥		لعنة الذهب
١٧٣		هذا هو الانسان
١٨٥		محنة الأئمين
١٩٥		البداية والنهاية
٢٠١		كنانة الله

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دارالهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج أنيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لا يرهق أحدا من عشاق القراءة والاطلاع .. وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

الموضوع	المؤلف	الكتاب
تحليل لشخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم	عباس محمود العقاد	عبقرية محمد
قصة طواف ماجلان حول الارض	مستيفان زنايج	ماجلان : قاهر البحار
الحياة العامة والخاصة للخليفة هرون الرشيد	احمد امين بك	هرون الرشيد
قصة استشهاد الامام الحسين رضى الله عنه	عباس محمود العقاد	ابو الشهداء
الحياة الحربية والسياسية لجنكيز خان	ف . يان	جنكيز خان
قصة غرام نابليون وجوزفين	اوكتاف اوبرى	قلب النسر

الموضوع	المؤلف	الكتاب
قصة حياة أول زعيم شعبي لمصر الحديثة	محمد فريد أبو حديد بك	السيد عمر مكرم
قصة أشهر زعيم سياسي روجي في الشرق	لويس فيشر	غاندي : الثائر القديس
قصة الثورة في حياة الزعيم الخالد سعد زغلول	عباس محمود العقاد	زعيم الثورة : سعد زغلول
لم يصدر بعد	عبد الرحمن الرافعي بك	الزعيم أحمد عرابي
قصة زينب بنت الزهراء ودورها الخالد في معارك كربلاء	الدكتورة بنت الشاطئ	بطلة كربلاء : زينب بنت الزهراء
قصة أخف الطفيليين ظلا والطفهم وأظرفهم نادرة	توفيق الحكيم بك	أشعب أمير الطفيليين

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبي دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبي ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببنية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، وأكشاك الصحف

وكلاء مجلات دار النهضة

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه - السور - العسيلي .
المدخل الشمالى ص ٠ ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعساني

حمص : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعي - ص ٠ ب ٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص ٠ ب ٩٧

البحرين والخليج : السيد مؤيد أحمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
البحرين : الفارسي

Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

البرازيل :

The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

ساحل الذهب :

Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

نيجيريا :

مكتب توزيع المطبوعات العربية

انجلترا :

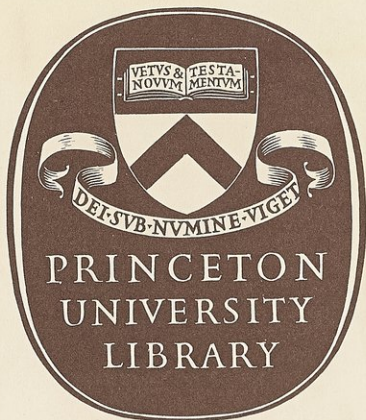
Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

نفرتيتى ربة الجمال والتاج ، وصاحبة أشهر تمثال في العالم ، وملكة مصر في عصرها الذهبي ، وزوجة اخناتون العظيم أول من نادى بديانة التوحيد قبل جميع الأديان، وأول ملك قديس عرف في العالم القديم، وكانت حياته وزوجته حياة فذة في التضحية في معركة الروح والحق والعدل والخير !.

وقد استوفى هذا الكتاب قصة هذين الزوجين : في حياتهما الانسانية ، وحياتهما الملكية ، وحياتهما الروحية . وصورت مؤلفته الفاضلة تلك المعركة الروحية والاجتماعية التي خاضا غمارها ، ولقيا ما فيها من صعاب وجهاد ، كما صورت حياة الشعب المصرى في ذلك العصر ، وكيف تنازعت ديارتان : ديانة التوحيد التي حمل لواءها اخناتون ، وديانته الوثنية وتعدد الآلهة التي كان يدعو اليها كهنة آمون

ولعل التاريخ المصرى لا يحوى معركة انتصر فيها الباطل على الحق كهذه المعركة ، ولا مأساة انتهت بها حياة اخناتون وحياة زوجته كهذه المأساة، فقد اعتزل هو الملك والناس زهدا في الدنيا وأهلها حتى مات شهيدا مجهولا . واعتزلت هي الدنيا ، وتنكر لها أهلها، فأثرت الموت على الحياة .. ولكنها ظلت حية خالدة في تمثالها الرائع وتاريخها العظيم



Princeton University Library



32101 060543574

IP